بعيداً عن العنكبوت

حارستي حمامة

وأكره مدينتي

بعيداً عن العنكبوت

حارستي حمامة

وأكره مدينتي

رواية

فليحة حسن

دار اراس للطباعة والنشر

أربيل – اقليم كردستان العراق

3

جميع الحقوق محفوظة ©
دار اراس للطباعة والنشر
شارع گولان – اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الألكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

فليحة حسن
بعيداً عن العنكبوت حارستي حمامة وأكره مدينتي – رواية
منشورات اراس رقم: ١٢٨٢
الطبعة الاولى ٢٠١٢
كمية الطبع: ٦٠٠ نسخة
مطبعة اراس – أربيل
رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٥٦٧– ٢٠١٢
الاخراج الداخلي: زياد طارق
الغلاف: آراس أكرم

ردمك:
ISBN: 978-9966-487-49-2

أرجوك لاتفعلي ها أنذا أتألم، أتركي الباب أرجوكِ لمّ تعيدين الكرّة من جديد؟ أرجوكِ هذا قدرنا أتركيه أتركي الباب ألا تشعرين بالألم؟!

ثم تعالى صوته صارخاً بألم:

– جدتي ساعديني أرجوكِ إنها تمزقني من جديد..أرجوكِ ساعديني..تعاليْ جدتي.

بسرعة كبيرة تدخل إمرأة مسنّة ترفل بسواد عتيق وهي تتصبب عرقاً وتركض صوب يد الفتاة وبقوة تعمل على فصل اليد عن الحافة الخشبية لباب الغرفة وهي تقول بصوت أقرب الى الصياح منه الى الكلام..

– بمحاولاتك هذه ستموتان معاً، تتمزقان ألا تفهمين هل إنتِ حمقاء؟

تتهاوى الكفّ رويداً رويداً وتترك حافة الباب وتسقط ليسقط معها الجسد والجسد الآخر ويتعالى صوت ممزوج بنحيب أنثوي..

– لم اعدّ قادرة على العيش بهذه الطريقة ألا تفهمانني أنا أموت

كلّ لحظة، ثم تستدير برأسها إليه متسائلة والدموع تنساب من عينيها:

– هل تعجبك حياتنا بهذا الشكل؟ هل أنت مرتاح؟ ألم تضجر مني؟ منك؟ من هذا المكان؟

ثم تلتفتُ صوب الجدة بدموعها الغزيرة وصوتها الممتزج بالمرارة:

– جدتي لماذا لاتشعرين بي أنا أموت صدقيني؟

بينما أبدى الآخر تجلداً وهو يقول:

– هذا قدرنا نحن صنيعة القدر لَمَ تعترضين على ماصنعه القدر؟

تصرخ:

– القدر؟ من هو القدر؟ أبوك؟ أمك؟

تلتفتُ لجدتها متسائلة ببكاء:

– قولي جدتي ما القدر؟ وكيف له قدرة على أن يصنع منّا شكلاً مخيفاً هكذا؟

– هدئي من روعك طفلتي نحن كلّنا صنيعة القدر، أنظرا جيداً إليّ هل تجدان فيّ مايفرح؟

ما أنا إلا عجوز وحيدة تعيش بالسواد لاتجيد سوى الفرجة على الآخرين، هل تعتقدان مثلاً إن حالي أفضل منكما أبداً، أنا لاأستطيع أن أشارك أهلي وأقاربي في شيء من أفراحهم أو أحزانهم خوفاً من التطفل عليّ، وعلى حياتي الخاصة هل تعتقدان مثلاً إنني بلا أهل بلا أقارب لكن كيف أستطيع التواصل معهم وأنا هكذا؟

صـدقـانـي أنا حين أجلس في دكـانـي لا أشـارك الناس فـي شيء أبداً، أنا أتفـرج عليهم فقط،على الغادي والرائح أتفـرج على من ولد ومن مـات، من بـاع ومن أشـترى من تزوجتْ ومن ترملتْ ومن تطلقتْ هذه هي حـياتي، فرجـة ليس أكثـر من فرجة، ولو إنني رأيتُ شـيـئاً أسمه قدر لسألته لِمَ فعلت بنا هكذا؟

ما الذنب الذي اقترفناه لتصنعنا على هذه الشاكلة؟

ما الذي دعاك لفعل ذلك؟

أم إن صناعتنا محكومة بمزاجك وحدك؟

نعم. لو رأيته لسألته لِمَ جعلت ولدي يرحل دون عودة؟

لِمَ جعلتَ دوّامة الحروب تأخذه بعيداً؟

لِمَ جعلتهم يأتون بملابسهم البيض وحقيبتهم الزرقاء ذات الهلال الأحمر ويزرقونها بالمصل؟

لِمَ لمْ تقطعهم بأسنانكَ وهم ينفذون أمر كبيرهم متضاحكين (كلّ شيء من أجل النصر)؟

لمَ لم أخبئها عنهم حين همستْ لي عمتي أنا في الأشهر الأولى من الحمل اخاف أن يشوهوا طفلي؟

اخافهم، لِمَ علينا أن نتكاثر من أجل حروبه؟

لِمَ اكتفيتُ بالحزن وحده حين حدثتني عمتي هامسة أحس بشيء آخر في داخلي ليس ولداً، وليس بنتاً هناك شي آخر صدقيني،

كنتُ أشـعـر بذلك لكني لاأريد أن أصـدقـهـا فـمـاذا يوجد فـي بطن إمرأة حامل غير آدمي ذكر أو أنثى أو ربما توأم!

كنتُ أعتصب بأمل كاذب وأشد إزرها بالكلام الكلام فقط، كلام لايجدي نفعاً فلو كنت أعرف إن هذا الذي سيحقنوها به سيجعلكما هكذا لمزقتُ طبلات آذانهم صراخاً حتى يولوا أدبارهم هاربين...

أرجوكما لاتسألاني بعد ألآن عن القدر؟

قالت كلّ ذلك والدموع تنحدر من على وجنتيها دونما توقف،

– جدتي هل أن ماحقنوه لأمي جعلنا نكون هكذا؟ سأل الفتى.

– لا أدري... ربما. ردّت عليه العجوز وهي تطأطئ رأسها الى الأرض مختنقة بعبراتها.

– أم غايب أم غايب خالة أم غايب؟ أخترق صوت أحد الصغار المكان، فصمتَ الجميع وبحركة واحدة تراجع الجسدان الى الحائط وحاولا ضم ركبتيهما بأيديهما وإلتزام الصمت خوفاً من الإكتشاف بينما همستْ الجدة وهي تمسح دموعها عن وجنتيها بيدها اليمنى:

– ارجوكما القليل من الصمت وإلا إكتشفونا.. أرجوكما هدوء بينما راحت اليد الآخرى تسوي (الشيلة) السوداء وتصلح من وضعها على رأسها ثم ردّت على الصوت:

– أنا قادمة.. قادمة. وهي تتمتم خارجة:

– لماذا ينادون عليّ بأم غايب ألم أخبرهم إن أسم ولدي علي؟

إرتباكها جعلها تترك باب الغرفة مفتوحاً فيمدُّ الجسدان أقدامهما وينظر الرأسان احدهما الى الاخر وهما يتساءلان متعجبين:

– لقد تركتْ الباب مفتوحاً. تقول الفتاة.

– ربما نسيتْ، يجيب الفتى.

– ولماذا لم ينس القدر أن يصنعنا هكذا؟

– تساءلتْ الفتاة وهي تضع رأسها بين يديها وتنتحب بصمت،

– أرجوك لاتتصوري إنني فرح بحالنا هذا.. ولكنه أمر لابد من الرضوخ له لِمَ لمْ توقني بعد إن حالنا هذا لايمكن الفرار منه إلا بموتنا.. نحن هكذا خُلقنا.. ولا مفرّمن إستمرارنا في العيش كما نحن الآن. يقول الفتى هامساً.

يعلو صوت الفتاة من جديد وهي تقول بغضب ناظرة في وجه أخيها:

– يقتلني إستسلامكَ هذا.

– من قال إنه إستسلام لكنه واقع حال أتفهمين؟.. كيف تتصورين إننا بإنفصالنا يمكن أن نحيا.... نحن معاً ولابد أن نبقى، أفهمي إن إنفصالنا يعني الهلاك والحياة تعني البقاء معاً وعلى هذه الشاكلة فقط، أهدئي فنحن معاً لن نحس أبداً بالوحدة مادمنا معاً.

– نعم.

تخرج من شفتيها هذه الكلمة بسخرية.

– نعم.. ومن قال إنني لا أشعربالوحدة؟ هل بالضرورة يعني الإلتصاق بالآخر عدم الشعور بالوحدة؟... والإنفعالات الاخرى ما مصيرها؟ هل تستطيع ان تجيبني لماذا علينا ان ننام معاً وعلى ظهرنا دوماً فإذا ماتعبنا إستيقظنا جلوساً أو وقوفاً، ألا تتمنى أن تجرّب النوم على جانبك أو حتى على بطنك؟ لماذا عليّ ان أستيقظ متى ماشعرت َانتَ بحاجتكَ لإفراغ مثانتك حتى ولو كنت مستغرقة

في نوم عميق؟... لماذا عليّ أن أستمع لشخيرك أو أدفن رأسي تحت الوسادة كي أنام؟

– ومنْ قال بأنكِ لا تشخرين؟

– إذا كان الأمر كذلك وإذا كان شخيري يزعجك فلماذا لا تنتفض؟ لا تحاول الإنفصال عني؟ أتمنى أن أرى ظلّي فقط على الأرض التي أدوسها،

أتفهم أتمنى أن أنظر في المرآة لجسدي فأراه وحده..وحده بتفاصيله دونك، تعال تعال.. تحاول أن تسحب نفسها الى مرآة كبيرة تغطي وجه خزانة الملابس فيقومان معاً بالنظر، أنظر ماذا ترى ألسنا بشكلنا هذا إذا ما أختفى أحد رأسينا صرّنا عنكبوتاً، نعم.. نحن في حقيقتنا ليس أكثر من عنكبوت، عنكبوت تصرخ مرددة لهذه الكلمة ثم تغطي وجهها بيديها وتبكي.

يطرق الفتى برأسه الى الأرض ثم يسحب نفسه بهدوء فينسحبان معاً ليجلسا ويبدأ الحديث هامساً:

– أنتِ دوماً قاسية، لم أعهد منك سوى الصراخ والتذكير بوضع ليس له بديل، تلومينني وكأني أنا المسؤول عنه، أنتِ حتى لاتريدين أن تفهمي إنني مثلك تماماً أرفض وضعنا هذا ولكن الرفض وحده لايكفي إذا لم يصاحبه فعل لكن الفعل هنا غير مجدٍ، فلم يكن إلتصاقنا هذا هشاً ويمكن الفصل بيننا بسهولة، صدقيني لو كان هذا الأمر ينجم عنه جروح عدة ونزف وحتى تشوه لقبلته لكنه يؤدي الى الموت موتك أو موتي أو ربما موتنا معاً، فقدان حياتنا.

– موت؟ وأين هي حياتنا هذه التي ترفض ان تفرط بها؟ أتسمي

مجرد الأكل والشرب والتبرز والنوم حياة؟

قل لي كم مرة فزّتْ روحك فزعاً وأنت تسمع صوتاً لأحد الأطفال وترتجف خشية أن يرانا فيهرب أو يخبر الآخرين عن سرٍّ جدتنا الذي تخبئه منذ خمسة عشر عاماً؟

وأي حياة تلك التي يتوجب عليك أن لاتغادر بها غرفتك المغلقة هذه إذا نسيت جدتك إغلاق باب البيت؟

وأية حياة هذه التي يتوجب بها أن تشم كلّ مايخرج مني من رائحة كريهة وأفعل ذلك أنا أيضاً دون أن أعترض؟

وأي حياة هذه التي يتوجب بها تقاسم السرير والكرسي وحتى المرحاض في وقت واحد؟

يسمعان أصوات قدمي جدتهما قادمتين فيتوقفان عن الكلام ويصطنعان الهدوء، تدخل الجدة وتسألهما:

– ها.. مازلتما تتشاجران؟ ألم تكبرا بعد يا لعبتي الجميلة؟ تقول لهما الجدة وهي تقترب منهما متوددة.

يبتسم الذكر وهو يرفع وجهه صوبها متسائلاً:

– جدتي كيف كنتِ تقمطينا حين كنّا صغاراً؟

تقول الفتاة بتهكم:

– هذا أمر مضى أسألها سؤالاً يتعلق بالمستقبل.... قل لها كيف سيقومون بتكفيننا وكم سيكون عرض الكفن ياترى؟

تصوب الجدة نظرة أمتعاض إليها ثم تعود وتوجه النظر صوب حفيدها وهي تقول:

– أذكر حين خرجتْ الممرضة من غرفة العمليات لتخبرني بأن أمكما قد رحلتْ كدتُ أسقط مغشية عليّ لولا إن إحدى النساء التي كانت تنتظر خروج إبنتها من صالة الولادة هي الآخرى سارعت إليّ وأمسكتني بيديها وهي تتمتم بين الدعاء بسلامة الأخريات والترحم على أمكما، لكن ماجعلني أقوم فزعة، الصرخة التي انطلقت من الممرضة التي طُلب منها رفعكما وإخراجكما إليّ...ركضتُ متهالكة حين سمعت تلك الصرخة ودخلتُ الغرفة ونظرتُ الى الممرضة التي تجمدتْ في مكانها وأخذتْ ترتعد وإمارات الخوف والتقزز بادية على ملامح وجهها وهي تطالعكما بين الحين والآخر واضعة يدها فوق فمها لتغلقه،

ركضتُ إليكما... كنتما لمّا تزالا تغمضان عيونكما وتسبلان إيديكما وإرجلكما تفاجأت وأنا أنظر إليكما من فزع الممرضة لكني حين اقتربتُ منكما وأمعنتُ النظر فيكما.

قاطعتها الفتاة قائلة:

– فزعتِ وأصابكِ ما أصاب الممرضة من تقزز أليس كذلك؟

أجابت العجوز بشيء من التردد وبدتْ كمنْ شرد ذهنها:

– لا، بل شعور من الحزن والخيبة والخوف مما ستؤول إليه الأمور، أبداً لم أتقزز منكما بل خفتُ أن يراكما أحد فتكونان فرجة لاتنتهي للمتطفلين، إرتبكتُ لمرآكم. على هذه الشاكلة، فلم أكن قد أعددتُ مايلزم لوضعكما هذا من ملابس إذ لم تخطر على بالي هذه الصورة التي رأيتكما عليها أبداً....أسرعتُ ونزعتُ عن رأسي فوطتي ولففتُ جسديكما بها.... وبطريقة أجهلها وضعتكما تحت عباءتي

وخـرجتُ مـسـرعـة، أرتبـاكي وأنتـمـا مـعي جـعلني أسـرع تاركـة المسـتشـفى وفكري منقسم بين البـحث عن مكان آمن أضـعكما فـيه وبين من يساعدني في تسلم جثة أمكما.

سائق التكسي الذي إستاجرته ليقلني الى البيت صار يكثر النظر إليّ من خـلال المرآة الداخليـة في سـيـارته وحين أفـزعـتكمـا مطبّـات الطريق وصدر صوت بكاء من أحدكما إلتفتَ إليَّ مذعوراً وهو يقول:

– ماهذا الصوت؟

أجبته بأرتباك: – إنه الصغير أكيد أنه جائع.

وصـرتُ أهزكـمـا بيـدي وأحـاول ان أبدو طبـيـعـيـة لكن الذي زاد إرتباكي صوت البكاء الآخر الذي جعل الرجل يستدير ثانية ويسألني

– هل هما توأم؟

– نعم، نعم.

قلت له وأكملتُ الحديث بدمعي.

– لقد توفيتْ والدتهما عند الوضـع وعليّ الذهاب الى البيت للإتيـان بمن سيساعدني في إستلام الجثة ودفنها.

بين المصدق والمكذب إستدار السائق الى الأمام منطلقاً بسيارته نحو البيت بسرعة.

إرتبكتْ جارتنا وهي تراني باكية ركضتْ نحوي قائلة:

– ماذا حدث أم غايب أين كنتكِ؟

إخـتـنقتُ بعـبـرتي وأنا أخـبـرهـا بموت أمكمـا ولا أدري من أين جاءتني القوة التي سحبتُ بها يدها وهمستُ لها بصوت أجش:

– أسمعيني علوية هذا سرّ أستحلفك بالله أن لا تبوحي به لأحد أبداً.....وبالكاد مددتُ يدي اليسرى الى جيب ثوبي وأخرجتُ مفتاح البيت قائلة لها:

– خذي أفتحي الباب.

فتحتْ جارتي الباب وأسرعتْ بكما الى الداخل وأتجهتْ الى الغرفة وأنزلتكما الى الأرض المفروشة بحصير متهرئ..

– بسم الله الرحمن الرحيم، سمعتها تقول وتندفع الى الباب وهي تراكما وقد تشابك جسديكما بينما إلتف حبلاكما على أقدامكما لينتهي بمشيمة واحدة صرتما تتململان وتبكيان بينما خرجتُ باحثة عن شفرة لقطع الحبل السري وأنا اقول: علوية، راقبيهما حتى أعود.

لاأدري كم إستغرق الوقت الى أن وجدتُ مقصاً في دكاني وذهبتُ به الى المطبخ، أشعلتُ عين الموقد الغازي وأمسكتُ طرف المقص بقطعة قماش سميكة وقرّبته من النار الملتهبة حتى توهج، ثم تحول ذلك التوهج الى سواد. أطفأتُ الموقد ومسحتُ المقص بقطعة قماش أخرى كانت موجودة في المطبخ وأنا لمّا ازل أسمع صراخكما،

بسرعة عدتُ الى الغرفة حيث كانت جارتي تنحني عليكما مراقبة بينما صار بكاؤكما يتعالى إقتربتُ منكما وطلبتُ من العلوية أن تساعدني فيما عزمتُ عليه جلستْ قبالتي وحاولتْ الإمساك بأقدامكما بينما أمسكتُ أنا بالحبل السري الأول وقطعته، وشددتُ طرف الحبل السري شدة محكمة بخيط قطن وأسرعتُ لقطع الحبل الثاني إلا إن الألم الذي جعل الطفل يتلوى ويحرك أطرافه ضارباً الهواء محركاً الجسدين معاً صعّب القطع وبدتْ يدي وكأنها تناور

حركات الجسدين كي لاتخطىء مكان القص وتصابا بالاذى. لم اجد بداً من الإتكاء عليكما بركبتي فجثوتُ عليكما وبسرعة كبيرة أمسكتُ الحبل بيدي وقطعته.

أخذ جسداكما يتلويان تحتي فرفعتُ عنكما ركبتي وإستدرتُ وشددتُ الجرح الآخر بخيط قطن ثانٍ كنتما لاتزالان تصرخان وكم شعرتُ بالخوف وأنا أرى كفّ أحدكما ترتفع لتمسك بإحدى خصلات شعري المتدلية والتي خرجتْ من تحت فوطتي التي كادتْ تسقط من رأسي وتشدها بغضب كنتِ (انتِ)، وأشارتْ الجدة الى حفيدتها.

ثم واصلت كلامها.... إسترختْ الكفّ وفارقتْ خصلات شعري التي أمسكتها حين أخذتْ جارتي تضع في فم كلّ منكما قليلاً من الماء الدافئ المحلى بالسكر وبدأتما لأول مرة تتذوقان من فمكما سائلاً جديداً غير ما كان يصل إليكما من أمكما عن طريق المشيمة.

أنتما محظوظان فقد كانت الحلاوة أول ما أرتشفتما من طعم الحياة همستْ العجوز لهما وهي تواصل كلامها وتحاول أن تتحاشى النظر الى وجهيهما.

– وكنّا لما نزل عراة؟....قال الفتى متسائلاً..

فأجابتْ جدته حين أخذتْ جارتي تطعمكما إنتهزتُ الفرصة وبحثتُ في خزانة الملابس عن قطعة كبيرة لألفكما فلم أجد غير (جادر الصلاة) الأبيض شققتُ رأسه فصار مستطيلاً وقطعتُ منه قطعة على شكل حبل ثم شقتته الى نصفين و خرجتُ وجلبتُ قطعة أخرى من قماش نظيف بللتها بالماء ثم عصرتها جيداً ومسحتُ الدم العالق بكما،

وحين بدأتما بالنوم لمتُ المشيمة وبقايا الحبل السري والقماش الملوث بالدم من الأرض ووضعتُ الجميع في كيس نايلون أسود وأخرجته من الغرفة وحين عدتُ توقفتُ أمام سؤال العلوية.

- كيف ستقمطينهما؟

جلستُ على الأرض ومددتُ قدميّ الى الأمام وقلتُ لها..

- تعاليْ وأجلسي الى جانبي ومديّ قدميك.

أمتثلتْ لما طلبتُ منها وجلستْ الى جانبي وهي تمدد قدميها وفرشنا القماش الأبيض على أقدامنا وبكثير من القوة والهدوء سحبناكما إلينا ووضعناكما فوق أقدامنا الممدودة المفروشة بالقماش لففتُ جهة من القماش عليكما بينما لفتْ هي الجهة الأخرى،

ثم طويتُ الطرف الأسفل وغطيتُ به الأقدام، ثم وضعتُ القماش المقصوص على شكل حبل تحت ظهريكما وطويتُ طرفيه بالتعاقب على صدريكما نزولاً الى الأسفل وكي لانفزعكما أومأتُ الى العلوية أن تجلب لي الفراش الصغير والوسادة التي كنتُ أعددتها من أجل المولود الجديد رفعتكما قليلاً عن قدم العلوية التي إنسلتْ بكلّ هدوء الى الخزانة، وجلبتْ ما طلبته من فوقها ووضعته على الأرض ومدتْ يدها صوبكما، ومعاً رفعناكما ووضعناكما على الفراش الذي فرشناه بطريقة مستعرضة ونمتما،

ومن هذه اللحظة صرتما تتقاسمان الأشياء معاً وصرتُ كلّما شعرتُ بضرورة تبديل ملابسكما أتسلل وأطرق باب العلوية فتأتي وتقاسمني تلك المهمة، بقينا على هذه الحال أشهراً عدة.

– وأمي؟ ما مصيرها سألتْ الفتاة؟

– كان زوج العلوية ورجل آخر أصغر سناً منه ينتظران عند الباب حين خرجنا وتركناكما نائمين.

قدما لي التعازي وأسرعتُ معهما الى المستشفى وبقيتْ العلوية في البيت معكما أخبرتها أن لاتطعمكما إلا السكر المذاب بالماء حتى أعود.

إستقلينا سيارة أجرة الى هناك ودخلتُ الى الردهة أسرع من الرجلين فأخبرتني الممرضات بأن جثتها حُملتْ الى الطوارئ فركضت مسرعة الى قسم الطوارئ وهناك طلبوا مني هويتها وشهادة جنسيتها فأخرجتُ لهم ماطلبوا وكنتُ قد أحضرتها معي لتسجيل بيان المولود. ثم طلبوا مني أن أوقع على بعض الأوراق فأخبرتهم إنني لاأعرف القراءة والكتابة، فبصمتُ على تلك الأوراق.

لم أتمالك نفسي وأنا أرى أمكما مسجاة على سرير الموت صرختُ بأعلى صوتي، وضربتُ صدري بيدي مراراً وتكراراً، فركض الرجلان إليّ وحاولا تهدئتي، طلب زوج العلوية من الآخر أن يذهب ويأتي بتابوت لوضع الجثة فيه، وأرسالها الى المغتسل، بينما وقفتُ على رأسها أنتحب وسمعتُ بعض الرجال الواقفين يقرأ لها سورة الفاتحة.

مرتْ أكثر من ساعة حتى أحضر الرجل التابوت ووضعه أمام باب الطوارئ بينما رفع رجلان إثنان من المراجعين لقسم الطوارئ أمكما أحدهم من جهة الرأس والآخر من جهة القدم بعد أن فرشتُ بطانية تحتها.

نعم. رفعاها الى التابوت الخشبي وحملا التابوت بعد أن غطياه

بعبائتها ووضعوه على سقف السيارة وسارا به الى المغتسل و.....

– خالة... خالة هل لديك زيتاً... خالة أين أنتِ؟

إنبعثَ صوت من باب البيت ليقطع قصَّ حكايتها وأجابته.

– نعم.. أنا قادمة... نعم يوجد إبقَ مكانك سآتي اليكِ سآتي.

خرجتْ العجوز شبه مسرعة وأغلقتْ باب غرفتهما وبقيا معاً يحاولان تخيل ماحدث لأمهما، يتخيلان كيف كانت، وكيف ماتت وما شكلها عند الموت، بكيا معاً لشعورهما إنهما السبب في موتها.

كيف كان شكل أمي ياترى قالت الفتاة؟

– كم أتمنى أن أراها الآن، أين تعتقدين جدتي تخبىء صورتها؟

– أعتقد انها تُخبئها في الدكان.

– ولماذا؟

– لا أدري... ربما حتى لانراها ونتألم.

– وهل ألمنا ينحصر برؤيتها؟

– تعتقد إننا مازلنا صغاراً على الألم هي لاتعرف مقدار ألمنا اليومي.

– دعينا نبحث عنها.

– وأبي... أين صورته ياترى؟

– مَنْ يشبهنا منهما يا ترى؟

قاما مستندين على الأرض وأخذا يبحثان عن تلك الصورة، بحثا دون جدوى ولما لم يجداها جلسا مرة أخرى يتخيلان شكلها وما أخذ كلّ واحد منهما من ملامح تخيلاها جميلة جداً وأخذا يبتسمان،

دخلتْ جدتهما وإندهشتْ لمرآهما هكذا فهي لم تشاهدهما على هذه الحالة من زمن بعيد.

– كم أنتما رائعان قالت الجدة.. يبدو إنكما تفكران في شيء جميل!

إنتبها إليها معاً...لكن الذكرأسرع قائلا كنّا نفكر في أمي.... جدتي من يشبهها منّا؟

حاولتْ العجوز أن تخفي ألماً إنتبها من أثر السؤال وتماسكتْ في جلوسها وهي تقول أنتما تشبهانها كلّ الشبه... وكأنها اختكما... توأمكما.... كانت مثلكما في غاية الروعة حتى الحمل لم يغير ملامحها.

– دعينا نرى صورتها جدتي أرجوك قالت الفتاة.

– لاتخبرينا انك لاتحتفظين لها بصورة حتى ولو كانت صغيرة قال الذكر.

لم تستطع العجوز ان تقاوم توسلات حفيديها وأذعنت للأمر وقامتْ لتخرج وهي تقول بصوت منخفض إمتزج بالحزن سآتي بها من هناك، واشارت الى دكانها وخرجتْ.

لم يستغرق انتظارهما طويلاً فقد عادتْ الجدة حاملة بيديها صورة مؤطرة بأطار بلاستيكي متوسطة الحجم وقد علا شيء من الغبار زجاجها وقربتها منهما وهي تقول:

– هاهما.. إنها صورة زواجهما الشيء الوحيد الذي اطعتهما به فلم يكن من عادة عشيرتنا إلتقاط صور الزواج عند المصوّر لكن

أبوكما ألحّ عليّ وخشيتُ إنه لن يعود لي سالماً وهذه أمنية لابد أن أحققها له فذهبتُ معهما هناك ورأيتُ كيف يلتقطها المصور لهما فقد تمنعتْ أول الأمر أمكما من خلع عباءتها لكنها رضخت للأمر حين شاهدتْ فرحة أبيكما بها.

كانت المرأة لمّا تزل تقصُّ لهما كلّ الذي حدث لحظة إلتقاط الصورة أما هما فلم ينبسا ببنت شفة، بينما راحت دموعهما تتابع صورة الشابين بملابسهما الأنيقة وهما يصوغان فرحة لقائهما بإبتسامة .

– ها... أليسا رائعين... قالت المرأة وهي تكفكف دموعها المتساقطة بطرف (شيلتها) لم تنتظر منهما جواباً لأن أفكارها هربتْ الى حيث اللحظة التي كانت فيها كعادتها اليومية جالسة في دكانها الصغير محاطة ببعض النساء اللواتي وقفنَّ للتبضع أمام دكانها، كنَّ يتحدثنَّ عن أخبار الرجال أبناء أو أزواجاً والذين أقتيدوا جنوداً.

يتجاذبن أطراف حديث يتأملن منه العثور على خيط رفيع من أمل في نهاية هذه الحرب التي أمتدتْ لسنوات عديدة ولّما تزل تأخذ الشاب نضراً، في عزِّ فتوته وتعيده بعد أيام من أتونها بقايا مجموعة في صندوق خشبي يسمونه تابوتاً وقد لُفّ بخرقة علم، ولاتمضي سوى ساعات حتى تُعلق على واجهة بيته لافتة كُتب عليها بحروف سريعة الأفول (الشهيد البطل)، كلُّ الشوارع لم تفلتْ من هذه اللافتات المبشرة بالموت والدالة عليه.

هي اليوم تتوجس شيئاً قادماً نحوها ربما هو صندوق ملفوف بعلم أيضاً هكذا شعرت في ذلك الصباح حين سقطت من يدها صينية طعام الإفطار عندما أرادت إدخالها الى حيث كان زوجها جالساً

ينظر الى زوجة أبنه المتألمة ويتحسر.

وهي تصارع آلاماً باتتْ تنتابها منذ أيام فقالت في نفسها (الله اليستر) وصمتت.

أكلتْ معهما دونما شهية، ثم خرج الزوجان هي لعملها في الغرفة المجاورة التي صنعتها دكاناً والرجل محدوداً ومطأطئ الرأس نحو الأرض وعلامات المرض والحزن بادية على مشيته وهو يسيرالى المقهى، بينما حاولتْ (الكنّة) الإستلقاء على ظهرها بعد أن خطتْ خطوات عديدة في الغرفة وخارجها جيئة وذهاباً تنفيذاً لنصيحة عمتها التي رأتْ في ذلك محاولة للتسريع في عملية الوضع،

فتحتْ العجوز باب الدكان لتستقبل معه ضوء الصباح، وسارعتْ لفتح المذياع الذي جهر بأصوات أناشيد الحرب والبيانات التي تبشر بقدوم نصر،

أجتمعتْ المتبضعات حول العجوز وبدأنَّ يتحدثن عن آخر الأخبارالتي وصلتهنَّ ولم تمضِ سوى سويعات قلائل حتى قدِمتْ سيارة (نجدة) سوداء ترجل منها شرطيان إثنان توجها صوب الدكان وسألا عن بيت الجندي المكلف علي.

إرتبكتْ العجوز وصرختْ بهما: ماذا حدث له؟

حاولا أن يشدّا من عزيمتها ويقوياها لكن وقع خبر (إستشهاد) ولدها جعلها تلطم وجهها ورأسها مرات عديدة وهي تدور في دكانها ناظرة الى وجهي الرجلين تارة والى النساء المحيطات بها اللواتي بدأنَّ العويل واللطم معها بينما أسرع أحد الشباب ركضاً الى المقهى في محاولة لإستدعاء والد علي الذي تطلب حضوره من أجل إستلام

جثمان ولده.

وحين فزعتْ (الكنّة) الحامل من منامها على وقع جلبة الأصوات خرجتْ حاسرة الرأس الى الباب وأطلتْ منه.

لم تستطع البقاء واقفة حين سمعتْ أسم زوجها يتكرر على لسان الشرطيين لكن العجوز حال رؤيتها لها وهي تهوي على الأرض أسرعتْ إليها من خلال الممر وأدخلتها الى الغرفة سحباً بمعاونة النساء اللواتي أدخلنها معها الى الغرفة وحاولن إجلاسها على الأرض وإسنادها بينما ركضتْ أمرأة وأحضرتْ بعض الماء ورشته على وجه الحامل المغمى عليها.

لم تكفْ المرأة عن لطم صدرها ورأسها غير إنها أسرعتْ وغطتْ جسد كنتّها بشرشف كان متروكاً في إحدى زوايا الغرفة حين رأتْ شاباً يقتحم باب الغرفة ويدخل منادياً:

– خالة، أبو علي مات.

أجابته العجوز بصوت واهن:

– ادري خالة علي مات.

– لا... خالة أبو علي... زوجك مات.

ماذا؟ تنبهت العجوز وصرختْ:

– متى؟

– لقد سقط ميتاً في المقهى حين اخبروه بإستشهاد إبنه.

خالة.. خالة (أم غايب).. أين أنت؟.. هل أنت هنا؟ بالكاد سمعتْ صوتاً أعادها الى هذه اللحظة الحاضرة من الماضي الذي تجسّد لها

على شكل يوم تراكمتْ أحزانه فنهضتْ وهي تجيبه:

– نعم. نعم أنا قادمة و سارعتْ بالخروج ....

بينما كان كلّ واحد منهما يريد أن يهمس لوالديه بما يشعر به الآن من فَقد، كلّ واحد منهما أراد أن يرى نفسه يتوسطهما في تلك الصورة ربما لو كان معهما لتغير كلّ شيء الآن !

بكى كلّ واحد منهما دونما صوت، بكيا طويلاً بعبارات مختنقة بكيا حتى إنهاراً من قسوة إنهمار دموع كانت كامنة طويلاً ووجدتْ طريقها الى البوح الآن، وقليلاً قليلاً تصاعد نشيج روحيهما أنيناً وتمنى كلّ واحد منهما لو إنه إستطاع أن يحضن الصورة وينام لكن إلتصاقهما حال حتى دون تلك الأمنية فوضعاها أمامهما متكئة على الحائط وبقيا جالسين يتأملانها بالدموع.

– هل انتما جائعان؟

بادرتْ جدتهما بسؤالهما وهي داخلة ولم يجيباها بل بقيا ساهمين محدقين في كنزهما المكتشف الضائع،ولم يبقِ لهما الحزن فجوة للجوع.

حاولتْ الجدة أن تخرجهما من حزن إكتشافهما فسحبتْ الصورة من مكانها..

جفلا وصرخا معاً:

– لا لماذا؟ وهما يريانها تأخذها وتحاول ان تعيدها الى مكانها في الدكان.

– لا أرجوك لاتفعلي ذلك.

توسلها الفتى وكررت الفتاة.

– جدتي لماذا تحرمينا حتى من صورتهما لاتكوني بقسوة القدر!

أستطاعا أن يستميلا عطفها وقررتْ أن تدعها لهما فقالتْ بصوت متهدج:

– نعم سأفعل ذلك لكن بشرط أن تسمعا كلامي، سأعلق صورة والديكما في غرفتكما إذا أبقيتما لي حيزاً في حياتكما فأنا جدتكما التي لن تستغني عنكما لكني أمرأة عجوز لاتمتلك حياة خارج حياتكما نعم. أنا أتعامل مع الناس الآخرين من أجل أن نعيش ثلاثتنا ،أبيع وأشتري لأجل حياتنا سوياً هل تفهمان؟

لاتبعداني عنكما ولاتبتعدا عني حتى لانموت، مثلما أنتما تحتاجان لي أنا أحتاج لكما أيضاً.

فهما معنى كلام جدتهما التي كانت تخشى أن تسرقهما منها الصورة،

يسرقهما الإستغراق بمعنى الأسرة الغائبة وتتلاشى رويداً رويداً صورتها الحية الحاضرة فهي لم تكن تحيا بغيرهما.

تنقلا بنظراتهما بين صورة ماضٍ لم يستطيعا أن يعيشا لحظاته ولم يفقها كيف كان وأين هما فيه وبين وجه حاضر ربما لن يجدا غيره ابداً، حاضر يتطلب منهما الإذعان الى صوته الوحيد المتمثل بإمرأة مسنّة تلخص معنى كلمة كلّ شيء في حضورها.

– أجل جدتي أنتِ عائلتنا ! قال الفتى وهو يركز النظر الى جدته وتابعته أخته لتقول:

– مَنْ لنّا غيركِ.... إذا ذهبتِ عنّا... أكيد سنموت.

أرادتْ المرأة أن تسارع الى أن تحضنهما لكنها إستبدلتْ الأمر بإبتسامة صادقة وجهتها إليهما وببطء مسحتْ دموعها وهي خارجة.

– إذن سآتي بالغداء.

لم تمرّ سوى لحظات حتى قال الفتى لأخته أعتقد إن أبي وأمي كانا يعيشان السعادة.

–كيف؟

– أن تحس بأن أحداً ما يعيش معك بإرادته يتقاسم معك حياتك كلها بأرادته تستطيع أن تسرّ له أسرارك تخبره عن كلّ مايمرّ بك من مشاعر هذه هي السعادة.

– وهل لديك أسرارمثلاً؟

– أجل لديّ ومن منّا ليس له أسرار أنتِ أيضاً لديك ماتخفينه عني أليس كذلك؟

– وماهي أسرارك؟

– كيف تصبح الأسرار أسراراً حين نبوح بها؟!

– أسمع يا أخي كلّ أسرارنا مكشوفة لجدتي وأظن إنها تعرف عنّا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا ومن ثم فلا أسرار لدينا.

– إنها مسكينة لقد تحملتْ عناء سرّنا لوحدها.

– أجل لكن ألم تخبرنا إن إمرأة أخرى عرفتْ السرّ، سرّنا فلماذا لم نرها حين كبرنا؟ أين اختفتْ ياترى؟

– لاأدري...

وساد صمت آخر بينهما حين نظرتْ الفتاة الى الصورة مرة أخرى وجعلتْ تحدّق في تفاصيلها وكيف كان الرجل يتكئ على مسند كرسي العروس التي بدت خجولة بابتسامتها وفستانها الأبيض.

– أنتما فعلاً جميلان قالت في سرها ليتني عشتُ ولو لحظات معكما هل كنتما ستحباني؟.. أعتقد ذلك.. لأنني أحبكما... أبي وأمي.

– هيا لنقم ونضع الصورة فوق ذلك الرّف قال الفتى وأشار الى رفّ في أعلى الجدار.

قاما معاً، ووضعا الصورة على الرفّ حينها دخلتْ جدتهما تحمل (صينية) الطعام.

قالت الفتاة: جدتي... غداً نحن سنعدّ الغداء سنحاول أن نجعلك تتذوقين مانصنعه.

أبتسمتْ الجدة وأجابتها سيكون ألذ طعام أكله يكفي أنه من صنع أيديكما.

صحيح جدتي؟ سألها الفتى.

فأجابتْ: وهل تعتقدان عكس ذلك؟ أنتما روحي، وأطرقتْ نحو صحنها .

–جدتي... أين المرأة التي حدثتنا عنها...التي ساعدتك حين وِلدْنا؟ سأل الفتى

– ها... تقصد العلوية، لقد تركوا شارعنا من زمن طويل أنا أيضاً تذكرتها اليوم و أخبرتُ جارتنا الخياطة حين جاءتْ لتشتري أزراراً إذا رأتها أن تأتي لنا كي نراها إنها إمرأة طيبة فعلاً وصديقتي الوحيدة.

– هل تعتقدين ياجدتي إنها أخبرتْ الآخرين عنّا؟ سألها مرة أخرى.

– لا أعتقد، فلو كانت قد أخبرتْ شخصاً بذلك لتسلل أليّ الخبر، الأسرار إذا خرجتْ من الأفواه تركض مسرعة لتعود لأصاحبها،أجابته جدته.

– وهل يكون الإنسان طيباً إذا أخفى سرّ غيره؟ تساءلتْ الفتاة .

– وهل تعتقدين إن حمل السرّ أمر هيّن ياصغيرتي؟! أبداً، إنها طيبة جداً لقد ساعدتني كثيراً وقفتْ الى جانبي بمواقف عديدة.

– تقصدين عند وفاة أمنا سألتها الأنثى.

– ليس هذا فقط،هل تدري ياصغيري ووجهتْ كلامها الى الفتى إنها هي من قام بختانك، نعم....فحين أخذتَ تصرخ ألما وتعسر خروج (بولك) ذهبتُ لها أستغيثُ وكدتُ أتعثر في الباب، أخبرتني بوجوب ختانك حين رأتْ ماكنت تمرّ به من ألم ولاأدري كيف أقنعتْ المضمد وأحضرتْ منه شفرة وتعقيم وقطن ربما الألم الذي كان ظاهراً عليك جعلها تظهر كلّ تلك الشجاعة وتطلب مني أن أمسك رجليك وأفرج ما بينهما وبحذر شديد إقتربتْ وفعلتها.

كنتُ أراها تتعرق بينما أخذتْ صرخاتك وصرخات أختك أيضاً تتعالى،ولم تصمت إلا بعد أن قرّبتُ من أنفك شيئاً من رائحة النفط الذي بللتُ به قطنة صغيرة.

حينها فقط إستسلمتَ للنوم بينما لم تنم أختك إلا حين ألقمتُ فمها بقنينة حليب. لولا العلوية ياصغيري ربما لكنت الآن... وأطرقتْ ثانية

نحو صحنها وهي تقول: كُلا ألا يبدو هذا الطعام لذيذاً؟!

– أجل جدتي إن كلّ ماتصنعينه لنا لذيذٌ فعلاً بل ألذ مافي العالم أجاب الفتى.

– ردتْ الفتاة: وكيف تعرف إنه الألذ ولم تتذوق غيره؟

لم يجبها بشيء فقط أبقى نظره مركزاً على وجه جدته وشاهدها وهي تحاول اخفاء إستيائها مما قالت حفيدتها .

– قصدتُ إننا لم نجرب طعاماً غير ماتصنعه لنا جدتي وهو أكيد لذيذ لكن....وتلعثمتْ ولم تستطع أن تكمل كلامها وهي ترى جدتها تحاول أن تبتلع لقمتها بعسر.

أبتلعتُ العجوز لقمتها ولملمتْ جلستها وحاولتْ النهوض وقالت:

– سأجلب الماء أشعر بالعطش.

– لا،جدتي لاتقومي نحن سنحضر الماء. بصوت متعجل قال الفتى.

– نعم. نحن سنجلبه، أيدته الفتاة.

توكاَ على الأرض وقاما وخرجا نحو الممر المؤدي الى مطبخ صغير مستطيل الشكل يتدلى من سقفه مصباح كهربائي وفي نهايته وضع طباخ غاز بينما حاذَ الباب صنبور ماء وِضعتْ تحته طاولة مصنوعة من الحديد ومغطاة بقماش من النايلون موضوع عليها عدد من الأقداح البلاستيكية وقنينة نصف مملوءة بالماء تسارعتْ يد الفتاة بعد أن نحيا جسديهما نحو القنينة ورفعتها ووضعتها تحت الصنبور وفتحتْ الصنبور لينزل منه ماء يملأ النصف الفارغ من القنينة بينما إمتدتْ يد الفتى نحو أحد الأقداح وحملته وخرجا عائدين دون أن

يجد الكلام بينهما مكاناً،

دخلا من الباب مثلما خرجا بكتفيهما فلم يكن بإستطاعتهما الدخول معاً إلا بهذه الطريقة قربّا القدح والقنينة معاً من جدتهما دونما كلمة وفي عينيّ كلاً منهما كلمة إعتذار من فعل أحمق إرتكباه تناولتْ الجدة منهما ما جاءا به إليها ودعتهما للجلوس بقربها وبدأت تتكلم بصوت إختلطتْ به إنفعالات عدة.

– أتعرفان....ليس علينا دوماً أن نجرب كلّ شيء لنعرف الأفضل فأنا مثلاً لم أعرف بيتاً اخر غير هذا البيت منذ خروجي من بيت أهلي عروساً، لكنه يشكل أجمل بيوت الأرض عندي،

بل هو يمثل كلّ حياتي حتى إنني إبتعته من صاحبه الذي كان قد إستأجرنا أيان بعد إستشهاد ولدي.

نعم. لم يكن بأستطاعتي أن أتركه فقد تزوجت به وأنجبت ولدي الوحيد به وزوّجته به وولدتما وعشتما به، لكنه لم يكن بيت سعادة قط.....أبداً لم يكن كذلك فقد توفي به زوجي بعد أن عانى الكثير، وبه توفيتْ غاليتي التي أحببتها مثلما أحبها أبوكما أيضاً وكنتُ به حين أفقدتني الحرب فلذة كبدي، مع ذلك أراه أجمل بيوت الأرض كلّها كما قلتُ لكما ولن أتركه إلا عند موتي..... هل تفهمان نحن لانستطيع أن نجرب كلّ شيء حتى نعرف الأفضل لأن البدائل قد لاتتوفر لكلّ شخص وبعض التجارب مستحيل أتفهمان؟

لملمتْ بقايا الطعام ووضعته في الصينية وحملتها وخرجتْ متجهة بها نحو المطبخ.

– أريد أن أدخل الحمام قالت الفتاة موجهه كلامها لأخيها وهي

تحثه على النهوض.

– نعم. سأقوم أنا ايضاً أريد أن أغسل يدي بعد الأكل قال لها.

– أحسُّ بإضطراب في أمعائي وكأني أصبت بإسهال.

– لاعليكِ، سأنادي جدتي قال لها.

– لا، أرجوك دعها هي مجرد وعكة ستنتهي حال دخولي الحمام.

– هيا أذن لنقم.

ذهبا عبر الممر الضيق نفسه وإتجها الى باب أخرى تخفي وراءها حمام صنع من أجلهما، حمام بمقعدين متلاصقين جداً والى جانب كلّ واحد منهما صنبور مياه موضوع تحته إبريق بلاستيكي،

دخلا بجانبهما كما إعتادا وجلسا، لم يكن الفتى بحاجة الى دخول ذلك المكان لكنه أمر إضطراري فهي أيضاً محتوم عليها أن تدخل معه الى هذا المكان المقرف وتنتظره مجبرة حتى ينهي إفراغ أمعائه وهي تحاول إغلاق فمها وأنفها دون جدوى فالرائحة الكريهة والأصوات المقززة مع ذلك تتسلل الى حواسها .

هذه المرة أخذت تتألم بشدة لم يكن ماتشعر به إسهال، بل مغص حاد كمن في أسفل بطنها أو هكذا أعتقدتْ.

أصابها تعرق وشعرتْ بإعياء شديد وألم قي قدميها من طول جلوسها غير المجدي على مقعد الحمام أغتسلتْ وطلبتْ من أخيها أن يقوم ليخرجا فاستوقفها قليلاً فقد شعر هو الآخر بحاجته لتفريغ مثانته تماسكتْ حتى إنتهى أخوها من التبول والإغتسال.

بعدها قاما وخرجا سالكين الممر نفسه الى غرفتهما، طلبتْ الفتاة

من إخيها أن يستلقي على ظهره كي تستلقي هي الأخرى فقد تحول الألم الذي تشعر به الى ظهرها.

فعل الفتى ما طلبته منه أخته وناما مستلقيان كالمعتاد على ظهريهما بينما تعادوتْ أيدي الألم على ضرب ظهر الفتاة ضرباً مبرحاً فأخذتْ تصك على أسنانها وترتجف، بقيتْ على هذه الحالة أكثر من نصف ساعة وهو يتوسل إليها أن ينادي جدتهما لكنها كانت تأبى معتقدة إن جدتها لمّا تزل غاضبة منها.

– هل توضأتما؟ دخلتْ الجدة وهي تسأل حفيديها.

– لا. سنقوم الآن ردتْ الفتاة وهي تحاول إخفاء ألمها مشيرة لإخيها بعدم الكلام.

نهضا خارجين وعادا وهما ينشفان وجهيهما وأيديهما من ماء الوضوء فتبسمتْ الجدة لهما وفرشتْ سجادات الصلاة بأتجاه القبلة، صاروا صفاً واحداً وحين كبّرتْ الجدة تكبيرة الصلاة الأولى شعرتْ الفتاة بسائل دافئ يخرج من أسفل جسدها منساباً نحو قدميها أرتبكتْ لكن تعاليم جدتها التي تقضي أن لايتكلم المصلي حتى ينهي صلاته أجبرتها على الصمت فصارت تركع وتسجد بينما قطرات الدم تلوث السجادة.

إنتهتْ الصلاة وسارعتْ الجدة الى طي سجادتها ورفعها من على الأرض لكن حفيدتها أرادتْ أن تخبرها بما حدث دون أن تتكلم فبقيتْ جالسة على سجادتها ولما إقتربتْ الجدة من سجادة الحفيدة اخذتْ الأخرى تنهض ببطء شديد مع أخيها فلمحتْ العجوز قطرات الدم وقد أصطبغ بها وجه سجادة الصلاة، (اتركيها انا سأتولى

تنظيفها تعاليْ أجلسي... أقصد أجلسا حتى أعود لن أتأخر)

قالت الجدة كلامها هذا وخرجتْ متعجلة ولم تمضِ سوى لحظات حتى عادتْ تحمل فوطة نسائية جلبتها من دكانها وأخرجتْ لها لباساً داخلياً وبجامة من صندوق ملابسهما وقربتها من يد الفتاة وكإنها تخفي سراً وهي تقول لها بصوت لايكاد يسمع:

– إخلعي ملابسك المتسخة وارتدي هذه تحت لباسك الداخلي وأشارتْ الى الفوطة، وإنحنتْ على السجادة تلمها من على الأرض، لم يصدر على وجه الفتاة أيما تعبير وتجمدتْ ملامحها وهي لاتعي مايحدث لها وتسبب في نزول الدم منها بينما تساءل الفتى وهو ينظر الى سجاد ة صلاة إخته.

– من أين هذا الدم؟

إستدارتْ العجوز إليه وعلا الإرتباك ملامح وجهها وبالكاد إستطاعتْ أن تجيبه – إنه شأن نسائي لاعليك منه.

–أنا سجادتي فارغة... أنظري... ليس عليها دم، قال مرة أخرى.

– أجل... أعلم.

ردتْ عليه العجوز من جديد وراحتْ تساعد أخته في وضع الفوطة النسائية تحت سروالها الداخلي بعد أن نزعتْ عنها ماإتسخ من ثياب.

– لاتشربي الماء البارد هذه الايام... سأعد لك شاي (النومي بصرة) الآن، قالتْ لها جدتها وخرجتْ وهي تحمل ملابس حفيدتها الملطخة بالدماء بينما صار الحفيدان يتعقبان جدتهما بنظرات متساءلة وكلّ منهما يقول:

(ماذا يحدث لنا؟) لم يتكلما فيما بينهما بل أطبق صمت مبهم بينهما وتشاغل أحدهما عن الآخر فلو سألا عن مايحدث لهما الآن فمَنْ سيجيبهما؟

إذا سينتظران عودة جدتهما هي وحدها التي تحمل طلسم الإجابة.

هكذا قررا بين نفسيهما فجلسا وبقيا يترقبان حركات الباب الذي أغلقته يدها حال خروجها من الغرفة.

بقيتْ أصابع الفتاة تتشابك قلقاً بينما تشاغل أخوها برسم دوائر وخطوط غيرمتناسقة على الأرض بسبابته.

– حتى انتَ تستطيع ان تشرب منه، قالت الجدة ذلك وقدمتْ قدحين من شاي نومي البصرة لحفيديها.

– لكنني لم يحدث لي شيء جدتي... أنا لم يخرج مني دم ! قال الفتى.

– أدري لكن الليمون الساخن ليس به ضرر هيا إشرب.

بدأ الإثنان يشربان ماقُدم إليهما وحين همتْ الجدّة بالخروج وهي تحمل السجادة الملوثة إستوقفها سؤال الفتاة.

– ماذا يحدث لي جدتي؟

– لاشيء صغيرتي هذا أمر طبيعي فقط صرتِ إمرأة.

– وهل كانت ذكراً مثلاً؟ سأل الفتى جدته بإستغراب.

– لاياعزيزي أجابته جدته بل كانت فتاة صغيرة والآن صارتْ إمرأة جاهزة للـ....آه وانقطع كلامها بحسرة.

– مابك جدتي لم لاتكملين سألتْ الفتاة؟

– أبداً أردتُ أن أقول إن كلّ إنسان يمرُّ بمراحل يكون صغيراً ثم يكبر وها أنتما تكبران.... ونظرتْ الى حفيدها وهي تقول لو أمعنتَ النظر الى وجهكَ لرأيتَ زغباً ينمو فوق شفتكَ العليا.... نعم. سينمو لك شارباً عما قريب ولو تحسستَ جسدكَ لأكتشفتَ وجود قليل من الشعر تحتَ إبطكَ وأسفل بطنكَ، ها..... أليس كذلك؟

إندهشَ الفتى وأخذ يتحسس جسده وأحسَّ بالإرتباك وهو يكتشف بإن أسراره معروفة من قبل جدته.

– أنتَ لم تفطن ياصغيري إن صوتك بدا يصبح غليظاً، إنه يذكرني بصوت أبيكَ وحتى أنفك قد كبر!

بسرعة وضع الفتى يده فوق أنفه ونظر الى أخته التي بادرته بإبتسامة ثم مالبثتْ تلك الإبتسامة أن تحولت الى ضحك، ضحك الجميع غير إن هذا الضحك توقف عند سماعهم قرعاً على الباب.

– خير إن شاء الله، قالت الجدة وخرجتْ كي تفتحه.

ثم عادتْ وهي تصطحب إمرأة مقاربة لها في السن وتغمرها بوابل من الترحيب.

– أهلاً وسهلاً تفضلي، تفضلي دخلتْ المرأة أولاً وهي تنظر صوبهما بينما أجفلتهما المفاجأة وبدا عليهما إنفعال خليط من الخوف والإرتباك معاً وإكتفيا بالنظر الى القادمة فقط.

– ماشاء الله، لقد كبُرا..... ومثلما توقعتُ إنهما يشبهان أبويهما فعلاً، قالتْ المرأة كلامها هذا وهي تتقدم لهما محاولة ضمهما بين يديها.

تبادل التوأمان النظرات متسائلين فيما بينهما من هذه ياترى وكيف تعرفنا؟

– أهلاً وسهلاً بالعلوية ردت الجدة كنّا نتحدث عنكِ هل تصدقين؟!... تفضلي أجلسي... سآتي بالشاي.

– لا..لا.. لاأريد شيئاً قبل قليل شربتُ شاياً عند الخياطة ردتْ عليها العلوية وجلستْ بعد أن قبلتهما.

شعرا بسعادة وهما يريان روتين أيامهما ينكسربزيارة غير متوقعة من إمرأة تعرف سرهما.

قالت الفتاة بفرح كبير:

– أهلا خالة أهلاً وسهلاً.

– إنك تشبهين جدتنا، قال الفتى.

– نعم. نحن صديقتان... وأكثر من الأختين... عشنا منذ طفولتنا معاً قالت الجدة.

– هل تصدقين أم غايب إنني توقعتهما بهذا الحجم لذا جعلتُ الخيّاطة تخيط لهما ثياباً جديدة.

جفل التوأمان وجدتهما من كلام العلوية معتقدين إن شخصاً آخر تسلل إليه خبرهما.

لكن العلوية فهمت الأمر فأخرجتْ من تحت عباءتها كيساً فيه بجامتان وقميصان وأخذتْ تعرضه أمام أنظار الجميع ثم طلبتْ من الجدة أن تأتي لها بمقص وخيوط وإبرة كي تجعله صالحاً لهما.

خرجتْ المرأة لتأتي لها بما طلبتْ وهي تتنفس الصعداء فقد

إطمأنتْ إن سرّ حفيديها لم ينكشف للخيّاطة فقد خاطتْ القميصين منفصلين وها هي العلوية تقوم بأعادة لصقهما معاً كي يصبحا صالحين لهما.

جلس الجميع وبدأتْ العلوية تقصُّ لهم مامرتْ به من أحداث وهي تخيط القميصين ليصبحا واحداً.

بأستمتاع لم يمرا به أبداً كانا ينصتان لها، يحاكيان حركاتها بعفوية، يبتسمان إذاما ابتسمتْ ويندهشان حين تندهش، ويحزنان مثلها تماماً.

إستغلتْ جدتهما ما يمران به وخرجتْ لتأتي بشاي الليمون الحامض فهي لاتستطيع إلا أن تضيّف الزائرة العزيزة التي إشتاقتْ لها وتنتظر مجيئها،

عادتْ وهي تحمل صينية الشاي ووجدتهما مازالا مستمتعين بما يسمعانه، تناولتْ العلوية قدح الشاي الحامض بعفوية وكأنها تنتظر مجيئه وأخذت بأرتشافه قليلاً قليلاً مكملة مابدأتْ من حكايا.

نَسيتْ الفتاة الألم الذي حلَّ بها ولم تتذكره إلا حين تلفتتْ العلوية باحثة عن شباك تعرف من خلاله كم الوقت الآن فلم تجد غير شباك صغير عال تنسدل فوقه ستارة قديمة، فوجهتْ كلامها الى أم غايب متسائلة:

– كم الوقت الآن ياترى؟ يبدو إنني قد تأخرتُ.

– لا، لا.. لا.. لم تتأخري قال الجميع وكأنهم متفقون.

إبتهجتْ العلوية لذلك ولكنها أردفتْ قائلة:

– يجب أن أذهب فقد حلّ المساء وقد أخبرتهم بعدم تأخري عند الخيّاطة.... لكني أعدكم بأني سأعود لزيارتكم عما قريب..... فهي لم تكمله بعد!

قاطعتها الفتاة:

– خالة أنت تخيطين ثوباً جديداً؟... واسترسلتْ تتنهد... كم أتمنى أن أرتدي ثوباً!

– لا ياصغيرتي ليس ثوباً إنه شيء آخر! قالت جملتها بحزن وهي تقوم خارجة تصطحبها أم غايب الى الباب ليستمرا بالحديث.

– أتدرين يا أم غايب إن الخيّاطة لم تصنع الكفن الى الآن...منذ أشهر أعطيتها القماش (الحبرة) جلبها (السيد) معه من (مكة) وقد قبلتْ كنتي بشق الأنفس أن تنقش عليه بالزعتر دعاء (الحصن الحصين) تعرفين إنني لا أعرف القراءة والكتابة.

– نعم. مثلي تماماً ردتْ أم غايب.

– لذا أنا ألح عليها أن تنهي خياطته قبل أن تبدل الآخرى رأيها فنحن لانبقى على رأي واحد أبداً.... ضحكتْ المرأتان وتوادعتا على أمل لقاء قريب وبسرعة عادتْ الجدة الى حفيديها فوجدتهما يتفحصان الملابس الجديدة.

– هيا أرتدياها... وهزتْ رأسها وهي تكمل إخلعا ثيابكما هذه والبسا الجديدة،

نهضا من مكانهما وخلعا البجامتين القديمتين واستبدلاها بمثيلتها بينما قامتْ الجدة بمساعدتهما في خلع قميصهما المشترك لتبين من

تحته صدراً جديداً للأنثى لم تشأ أن يطلع عليه غيرها صدر مثل رمانة صغيرة بحلمتين ورديتين أسرعتْ الجدة وغطته بالقميص القديم وأمرتْ الفتى أن يشيح بوجهه الى الجهة الآخرى ففعل ثم أسرعتْ وألبستهما القميص الجديد وهي تقول:

– أنتما الآن في منتهى الجمال... ذوق العلوية رائع... هل تشعران بالجوع؟... أنا أشعر برغبة في الأكل،سأعد العشاء باكراً الآن، قالتْ ذلك وتركتهما خارجة...

لم أتأخر عليكما أليس كذلك؟ قالت الجدة وهي تدخل الى الغرفة لكنهما لم يجيباها فقد كانا نائمين كالمعتاد على ظهريهما فوق سرير أبويهما الواسع وهذه المرة كانت تعلو شفاههما إبتسامة رضا عميقة.

– أنا أيضاً أشعر بالنعاس قالتْ العجوز وهي تنظر إليهما... تصبحان على خير وأعادتْ صينية الطعام الى المطبخ وعادتْ لتُنزل بهدوء فراشها من أعلى الصندوق الخشبي العالي وتفرشه على الأرض ثم وضعت عليه الوسادة وتمددتْ فوقه وغطتْ بنوم عميق.

بدأ جفناه بالحركة وشعر بضباب خفيف يتسلل من الباب التي إنفرجتْ ويغطي المكان رويداً رويداً في اللحظة التي دخلتْ بها العلوية الى الغرفة واقتربتْ من سرير الفتى مشيرة إليه بالتقدم نحوها.

نفذ ماطلبتْ وقام نازعاً عنه قميصه ليسقط عنه الجسد الآخر الأنثوي الملتصق به على السرير بينما تقدم نحوها سعيداً وهو يراها تخلع عباءتها عنها وتدعوه الى الإقتراب منها أكثر.

رمقته بنظرة شهوة فقرّب يداه من وجهها يتحسسه، لم يكن به أثر للتجاعيد.

كان منبهراً وهو يراها تدنيه منها وتطبع قبلة فوق جبينه وتتبعها بأخرى فوق خده إنتابه شعور غريب وهو يراها تفتح له أزرار ثوبها وتخرج له نهداً أبيض وتهمس له:

– هاك، إرضعه؟

أصابتْ شفتيه رعشة قليلة وهو يقربهما من النهد الطافح أنوثة بعدما لمس حلمتها لمسة تكاد لاتحس أذابتْ المرأة وجعلتها تمسك بيده الأخرى وتضعها على نهدها الآخر وهي تقول له بشبق:

– هذا أيضاً لكَ.

تلوى الجسدان واستجابا لفعل النشوة ثم إستسلما لحالة عشق أمتدتْ طوال ليلة بأكملها.

إقتربتْ الجدة من الفتاة التي كانتْ تحاول النهوض من نومتها المعتادة على ظهرها ملبية نداء حفيدتها بعد أن سمعتها تطلب منها إيقاظ أخيها الذي يغطُّ بنوم عميق الى الآن فقد كانت تشعر بحاجة ماسة لدخول الحمام.

– هيا استيقظ أيها الكسول نحن في الظهيرة الآن قالت الجدة وهي تضع يدها على كتف حفيدها.

– الله.. ردَّ الفتى على جدته وإبتسامة مجهولة المصدر تدغدغ روحه.

– مابكَ هيا استيقظ.. أريد الحمام هل تفهم! صرختْ أخته وهي تحاول النهوض من السرير.

– نعم... قمتُ ألا ترين ذلك؟! وأخذ يعتدل إستعداداً للنهوض، قربتْ الجدة كعادتها لهما يديها وتمسكا بها نازلين من أعلى السرير الى الأرض.

– جدتي هل تحضرين لي... وحاولتْ الفتاة أن تقرب فمها من أذن الجدة في محاولة خجولة لإبعاد أخيها عن عالم أسرار النساء الذي وجدتْ نفسها به وأكملتْ عبارتها.... فوطة ولباس آخر.

– نعم. أجابتها الجدة.

وخرجتْ، لحق بها الاثنان يتجهان صوب الحمام، دخلا وأغلقا عليهما الباب وجلسا كلا على مقعده وأشاحا بوجهيهما أحدهما عن الآخر وأفرغا مثانتهما وحين أوشكا على الإنتهاء سمعا صوت جدتهما من وراء الباب ينادي حفيدتها قائلة:

– إنزعي ملابسك واتركيها في السلة كي أغسلها وخذي إلبسي هذا.

فتحتْ الفتاة الباب وتناولتْ من جدتها ماكانت تحمله وارتدته وحين خرج الإثنان ووجدا جدتهما تنتظرهما في الممر همس لها الفتى وأبتسامة خفيفة عالقة فوق شفتيه:

– جدتي أنا أيضاً تركتُ لكِ لباسي...أرجوك إغسليه، قال الفتى ذلك وكأنه أراد أن يخبرها بما حدث له هو أيضاً.

أراد أن يخبرها بسائله الخاص الذي خرج من عضوه هو، السائل الذي لم يكن أحمر كدم أخته لكنّه سائل أشعره خروجه منه بإنفعال لم يألفه من قبل جعله سعيداً.

– نعم. سأفعل قالتْ له جدته وبقيتْ تتعقب إبتسامته تلك التي لم تفهم كنهها أولاً وحسبتها دعابة طفولة أو شيء من الغيرة المعهودة بين أخوين لكنها حين دخلتْ الحمام وتفحصتْ اللباس الداخلي لحفيدها وجدتْ بقايا سائله المنوي يلتصق به فأغمضتْ عينيها وحاولتْ التكتم على سره الآخر وأيقنتْ إنه قد أصبح رجلاً فعلاً، ولكن كيف ستكتمل رجولته وهو على هذه الشاكلة؟! تحسرتْ ودمعتْ عيناها، أعادته الى السلة وخرجتْ من الحمام وأغلقتْ بابه.

لم يتشاجرا هذا اليوم كما كان يحدث من قبل بل جلسا بهدوء وانتظرا حتى عادتْ جدتهما تحمل صينية الإفطار وبدأا يأكلان معها وكلاً منهما يفكر بما يمرُّ به متساءلاً في ذاته (ماذا يحدث لي ياترى؟)

إنتبهتْ الجدة لتباعد أفكارهما عن بعضهما فابتسمت لهما وهي تقول:

– ألا تريدان أن تحكيا لي ماحلمتما به أمس كما تفعلان كلّ يوم... أم إنكما لم تحلما بشيء؟

– لِمَ لاتقصي لنا حلمكِ أنتِ أولاً جدتي؟ قالتْ الفتاة وأبتلعتْ لقمتها.

– نعم.... أسمعا حلمتُ أمس بأنني أصنع كعكاً وحين خرجتُ كي أذهب به الى فرن السوق من أجل الشواء سقط من على رأسي فنزلتُ ألمه من على الأرض أقترب شخص لم أتبين ملامحه من شدة النور وأخذ يجمعه معي ويضعه في الصينية وهو يقول:

– الحمد لله ولاقوة إلا بالله... وصمتتْ ثم أردفتْ وهي تقول كان

يرتدي عمامة خضراء وثياباً بيضاً جميلة جداً، يبدو إنني نذرتُ نذراً ونسيته وهذا هو الخضر جاء ليذكرني به، سأخبز كعكاً غداً وأوزعه، وقامتْ لتلبي نداء أحدهم وهو يطلب من دكانها شيئاً،

– وأنتِ ألم تحلمي بشيء؟ سأل الفتى أخته وهو يقرّب قدح الشاي من فمه.

– حتى لو حلمتُ فقد خرجتْ جدتي ولم يعد واجباً أن نحكي أحلامنا ألآن.... أجابته أخته وهي تقضم قطعة الخبز فقد ذهب عنها الإرتباك الذي أصابها حين سمعتْ جدتها تطلب منهما قصَّ حلميهما عليها وهي تخشى أن تكذب عند رواية ما رأت ليلاً.

تخشى أن يدخل الله في فمها نخلة يوم القيامة كما أخبرتها جدتها حين تكذب في الحلم لكنها كيف تستطيع أن تقصَّ على جدتها وأخيها إن شاباً وسيماً إستعار ملامح أبيها الذي في الصورة جاءها وطلب منها أن تصطحبه الى الخارج وحين رفضتْ سحبها من يدها عنوة فإنسلختْ عن جسد أخيها وأركبها أمامه فوق حصان جامح وطارا معاً.

وكيف تخبرهما إن ذراعي ذلك الشاب أمسكتا بها، بجسدها اللدن وترك ليديها لجام الحصان وإنها لم تستطع أن تقاوم وقع قبلاته خشية أن تفلت اللجام ويسقطا من على ظهر ذلك الحصان.

وكيف ستخبرهما إنها كان تنتشي بوقع لمساته الممتدة الى كلّ شيء في جسدها غير أن يده إصطدمت في شيء ما بين فخذيها فأخرجها وهو يصيح دم.. دم.. دم، فأرتبكتْ وأرادتْ أن تُصمته، إلتفتتْ إليه وصرختْ متوسلة:

– كفى، كفى.. أرجوك لكن دونما جدوى حينها وضعتْ يدها فوق فمه محاولة إسكاته فأفلتْ اللجام من يديها وانقلب الحصان وتحول الأفق كلّه الى لون أحمر قانٍ.

– هل أنهيتَ إفطارك؟ يبدو إن جدتنا لن تعود الى إكمال إفطارها مارأيك هل نرجع الصينية الى المطبخ؟ قال الفتى.

– أفعل ماتشاء... يبدو إن جدتنا مشغولة فعلاً أجابته أخته.

لقد تأخرتُ عليكما دخلتْ جدتهما قائلة وأردفتْ وهي تجلس أمامهما يبدو إن مؤونة الدكان أوشكتْ على النفاذ يجب أن أذهب اليوم وأشتري بضاعة.... فقط إسكبا لي قليلاً من الشاي حتى وإن كان بارداً أنا مستعجلة،

فعلاّ ذلك برضىً وأخذتْ ترتشف شايها وهما منتبهان ومشدودان لما ستخبرهما عنه حال عودتها من السوق.

– ماذا تريدان أن أجلب لكما من هناك؟ سالتهما الجدة.

– ماتشائين. ردتْ الفتاة.

– لاشيء جدتي أجاب الفتى.

غير إن الجدة أحستْ أن هدوءهما لن يطول كثيراً ولأنها لا تستطيع أن توقف الشجار الذي سيحلُّ بينهما لتعذر وجودها في البيت إقترحتْ عليهما أن يرسما ما يتمنيان أن يحصلا عليه خصوصاً وهي تعرف كم هما ماهران في الرسم فقد ورثا تلك الموهبة من أبيهما، فطلبتْ منهما الإعتدال في جلستهما ومدّ ساقيهما الى الأمام ثم وضعتْ فوق السيقان المدوة وسادة ثم وضعتْ فوق

كلّ وسادة دفتر رسم وأعطتْ كلّ واحد منهما قلماً وبدأا يرسمان... بعد ذلك ودعتهما وخرجتْ وفور إغلاقها باب البيت سارعتْ إليها شابة وهي تصيح:

– خالة أم غايب إبنتي ستموت أرجوك ساعديني!

هدأتها العجوز وهي تغلق باب الدكان ثم سارتْ مسرعة الى جانبها وحين الوصول فتحتْ المرأة الباب الموارب بدفعه بيدها ودخلتا معاً لتجدا فيه طفلة صغيرة لمّا تزل في سن الرضاع تصرخ متألمة في مهدها.

إقتربتْ منها أم غايب ورفعتها إليها ورفعتْ عنها ثوبها فبدتْ بطنها منتفخة إنتفاخاً شديداً جعلها تبدو بلون أزرق حاولتْ العجوز تهدئتها بالتربيت على صدرها فلم تفلح في ذلك فسألتْ أمها.

– ماذا أعطيتها غير الحليب؟

– قليلاً من اللبن... كان عندها إسهال فأطعمتها لبناً.. قالت الأم بخجل وارتباك.

– هل أنتِ مجنونة.. صرختْ بها العجوز وهي ترفع الطفلة وتضعها على صدرها وتربتُ على ظهرها في محاولة لجعلها تتجشأ.

– هيا اسرعي واجلبي لي قطناً نظيفاً وعيدان كبريت وزيت طعام صاحتْ العجوز بأم الطفلة، فركضتْ الأخيرة وعادتْ مسرعة بما طلبته منها العجوز.

– والآن إمسكي بها وافعلي لها ما كنتُ أفعل أنا إجعليها تتجشأ الى أن أنتهي قالت العجوز وهي تعطي الطفلة لأمها فأخذتها الأم

ووضعتها على صدرها وبدأتْ تربتُ على ظهرها،بينما قامتْ العجوز بلفِّ القطن على رأس عيدان الكبريت وأدخلتها في الزيت ثم طلبتْ من الأم أن تعطيها الطفلة ففعلتْ ذلك،

قلبت العجوز الطفلة على ووجها ورفعتْ عجيزتها للأعلى وبدأتْ تدخل أحد العيدان المزيتة في مؤخرة الطفلة برفق والطفلة تتلوى ألماً وبعد لحظات صاحتْ بأمها:

– هيا بسرعة إحضري طستاً وماءً فاتراً وصابونة ومنشفة.

سارعتْ المرأة وأخذتْ تجلب ماطلبتْ أم غايب بسرعة هائلة وفي كلّ مرة تدخل حاملة لشيء مما طلبته العجوز تجد إبنتها تصرخ.

– إنتظري وسترين مافعلتِ بها... كدتِ تجعلينها تموت قالتْ العجوز للمرأة بعصبية شديدة،

فتسمرتْ الأم في مكانها وهي ترى شيئاً صلباً أزرق يخرج من مخرج الطفلة التي لّا تزل تتلوى وتزيله العجوز بيديها وكأنه حجر مزرق وترمي به الى الطست ثم بدا خروجها بالتحول تدريجياً من الصلابة الى الليونة ومن الإزرقاق الى الإزرق المصفر ثم ليخرج على طبيعته أصفر،

هدأتْ الطفلة قليلاً وهي تحسُّ بقطرات الماء الفاتر تنزل على عجزيتها المكشوفة التي غسلتها العجوز بالماء والصابون، ثم قامت بتنشيفها.

خرجتْ الأم وأتتْ بثوب آخر لطفلتها وخلعت عنها ثوبها المبلول وهي تمطر العجوز بوابل من الشكر والدعاء.

– لاتشكريني فـقط إعلمي إن الطفلة ليست في عمـر يمكنـها أن تأخذ شيئاً آخر غير الحليب، هيا إرضعيها وإذا عاودها الإسهال مرة أخرى فخذيها للطبيب.... لقد تـأخرتُ قالت العجوز وهي تغسل يديها بالماء والصابون وتنشفهما بالفوطة وتخرج مسرعة الى السوق.

أما هما فقد رسما كلّ ما يتمنيان أن يحصلا عليه، هي رسمتْ فستاناً وحقيبة نسائية ومرآة صغيرة.

بينما رسم هو كرة وحصان إستمد صورته من الحصان البلاستيكي الذي جلبته له جدته في أحد الأيام والذي لّايزل موضوعاً في الصندوق الخشبي مع بقية ألعابهما

– هيا، دعني أرَ مارسمتَ ! قالت الفتاة وسحبتْ الدفتر من يدي أخيها، وتعجبتْ لما رسمه لتقول لكن جدتنا طلبتْ منّا أن نرسم مانحلم به وأنتَ لديك حصاناً وكرة.

– أجل عندي حصان لكني لم أركبه حتى في الحلم..وعندي كرة ولكن قولي لي هل لعبنا بها مرة بأقدامنا مثلاً أجابها أخوها بحزن شديد.

– لا تحزن ياأخي أنا أيضاً لم ألبس يوماً ثوباً نسائياً... ثوباً مثل ثوب جدتي يكون لي وحدي... بمفردي يغطي جسدي أنا، وأنتَ تعرف إنني لم أمتلك حقيبة مثل التي تضع بها جدتي أوراقها ونقودها هناك في ذلك الدرج،وكم تمنيتُ أن أحصل على مرآة صغيرة مثل مرآة أمي التي وقعتْ من يدي من زمن وانكسرتْ... نحن نرسم الآن أمنياتنا وأحلامنا فقط التي لن تتحقق أبداً.

– خطرتْ لي فكرة.... لماذا لانرسم مَنْ في الخارج؟ قال الفتى.

– وكيف ذلك؟ سألتْ الفتاة.

– سنرسمه كما يخطر في بالنا من خلال الصوت قال لها، اصغِ جيداً... هناك من يقترب من الجدار ماذا تتوقعينه هل هو كبير أم صغير؟ رجل أم إمرأة؟ هل هو سعيد أم حزين؟ غاضب أم خائف؟ هل فهمتِ؟ وحينها سيكون لنا عالمنا الخاص... عالمنا الذي لايعتمد على كلمات جدتي وحكاياها فقط، ها... ماذا قلتِ؟

– نعم. هيا ننصتُ الى من إقترب الآن ! قالتْ الفتاة، واخذتْ تخطُّ على ورقة الرسم في دفترها صورة لطفل سمين يلبس حذاءً سميكاً يسير ببطء وحين وجد باب دكان العجوز مغلقاً عاد أدراجه من حيث أتى وهو غاضب، بينما رسم هو صورة للطفل نفسه وجعله يحمل بيده مصاصة من الحلوى يتسلى بها في الطريق وحين جاء هذا الطفل ووجد دكان العجوز مغلقاً وضعها في فمه وأخذ يمصها غير مبالٍ للأمر وواصل بحثه عن دكان آخر.

لم يتوقفا عند هذا الحدِّ، بل صارا يرسمان كلَّ مايتخيلانه، وبحركات مختلفة وهما يتجادلان في مايسمعان من أصوات ويجسدانها برسومات متغايرة في مابينها.

مضت ساعات عديدة لم يشعرا بها بقرب إنقضاء الظهيرة وتحول النهار الى العصر وهما يرسمان مايسمعانه فصار لكلِّ واحد منهما عالماً سمعياً يفسره حسبما يعتقد، وإن جاء هذا التفسير مغايراً تماماً للحقيقة أو مطابقاً لها احياناً، عادتْ العجوز لتجد في إنتظارها أشخاصاً عدة رُسمتْ وجوههم على بياض الورق.

وتوالتْ النهارات التي صارت تُرسم بها الملامح المسموعة وامتد

هوس الرسم ليشمل الليل الذي كان جلّه ينقضي فيه والمتبقي منه ينقضي في الإستغراق بنوم عميق.

إنتهتْ أوراق دفتريّ الرسم وأبتاعتْ الجدة لحفيديها غيرهما جديدين دشناهما برسم حركة جدتهما وهي تفتح الدكان، ودُهشتْ العجوز حين رأتْ صورتها مرسومة على الصفحتين، فقد جسدا حركاتها بدقة وكأنهما كانا معها فعلاً.

تحول الرسم الى عادة يومية، بل أكثر فهما يتربصان صوت أدنى حركة في الخارج ويقومان بتجسيدها صورة على الورق، ويتباريان بمقدار الحركات المرسومة في الصورة الواحدة.

فرحتْ العجوز وهي تراهما ينخرطان بهذه اللعبة الجديدة التي تبعدهما قليلاً عن الشجار، وأخذتْ تناقشهما فيما يرسمان.

وفي إحد الأيام، وحين كانت العجوز تجلس في دكانها جاءها شاب من أهل منطقتها وطلب منها أن تقوم برعاية أمه الضريرة التي سقطتْ متعثرة في السجادة الجديدة، وكُسرتْ ساقها حتى يعود بأخته من بيت زوجها في المدينة الأخرى لتعتني بها حين خروجه الى العمل حتى تشفى.

توسلها بنظراته وكلامه معاً وقبلتْ بذلك طالبة منه أن يعود ويصطحبها الى بيته قبل مغادرته.

بعد ذلك دخلتْ بيتها وأكملتْ إنجاز أعمالها اليومية المعتادة وهيأتْ لحفيديها طعام العشاء وتركته جانباً في المطبخ.

وحين سمعتْ صوت الفتى يناديها ودعتْ التوأمين وخرجتْ وهي

تعدهما بالعودة الباكرة في صباح الغد.

إصطحبها الفتى الى بيت والدته في نهاية الشارع المقابل لشارعها،

دخلا البيت وكانت المرأة الضريرة مستلقية في فراشها وقد جُبرت ساقها وحال سماعها لوقع أصوات أقدام الداخلين حاولتْ الإعتدال ولكنها لم تستطع،

فركض ولدها وساعدها في ذلك.

قبلتْ السيدتان بعضهما البعض وتبادلتا التحايا وقدم الفتى لأم غايب قنينة من البيبسي كولا، فأخذتها بعد إلحاحه على ذلك، ثم أوصاها بأمه خيراً وذهب. جلستْ أم غايب مقابل المرأة الضريرة التي أخذتْ تقصُّ لها حكاية تعثرها وقوعها على الأرض وكيفية ذهابها الى المستشفى، وما فعلوه بها هناك، وأم غايب تجاذبها إطراف الحديث الذي بدا طويلاً تلك الليلة وغير قابل للإنتهاء، إلا إن طرقاتٍ حادةٍ على باب البيت جعلتْ ذلك الحديث يتوقف ويحلُّ مكانه شيء من التساؤل عن هوية الطارق، وسبب الطرق.

وحين فتحتْ أم غايب الباب إنفرج شقيه عن شابة باكية تحاول الدخول الى البيت والإحتماء بأهله من رعب يلاحقها.

سألتها العجوز وهي تدخلها بيت المرأة الضريرة عن إسمها ومقدار معرفتها بأهل هذا البيت وأجابتْ الشابة على هذه الأسئلة بجمل يتخللها الدمع، فأتضح بأنها جارتهم وهي هاربة من ضربات زوجها الذي عاد مخموراً الآن، نادتها الجارة الضريرة وطلبتْ منها الدخول والبقاء في البيت حتى حلول الصباح.

جلستْ النسـاء الثلاث وهدأ روع الشـابة حين تأكـدتْ أن لا أحـد يتعقبها.

وحين سألتها صاحبة المنزل عن سبب شجارها مع زوجها أجابتها قائلة:

– كلّ يوم يقوم بضربي دونما سبب يذكر... يضربني بحجة وبدون حجة مرة لان ملابسه لم تجفّ قبل عودته الى البيت... ومرة لأن ملح الطعام قليل.. ومرة لأنه سمع صوتي وأنا أتحدثُ مع أمه قبل دخوله البيت... أنه يتحجج فقط... وكم أخبرتُ أخي عنه لكنّه يمتلك قدرة يستطيع بها أن يستميله الى جانبه ويجعله ينقلب ضدي... وأنا يتيمة.. توفي والديّ منذ صغري... ورباني أخي... وزوّجني لصديقه المدمن هذا... وكم طلبتُ منه الطلاق... ولكنه رفض وليس لي أن أتخلص منه إلا برضاه هو... ويوم أمس وبعد أن سمعتْ جارتنا أم كريم ببؤس حالي أصطحبتني الى أحدى العرافات التي قالت إنها ستخلصني منه مقابل مبلغ من المال وأشترطتْ عليّ أن آتي لها بسبع حفنات من تراب سبعة قبور مهدمة.

– ماذا؟ قالتْ العجوزة مندهشة وأردفتْ، وهل صدقتها؟

أجل صدقتها وبعتُ خاتماً ذهبياً كان عندي وذهبتُ اليوم الى المقبرة، دخلتُ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وبشفاه ترتعد خوفاً قلتها ولولا الموت الذي أحياهُ كلَّ يوم لم أَلجُ هذا المكان... كنتُ خائفة، بل سأتيبس بجلدي كنتُ... كيف سأمدُّ يدي الى هذا التراب تساءلتُ؟

– يا إلهي،سبع؟.... يالها من دجالة، كيف أذعنتِ لما طلبتْ؟ تساءلتْ أم غايب مرة أخرى،

– لا..لا.. ليس أنا من أذعنتْ بل هي الصفعات الدائمة التي أتلقاها منهُ كلّ يوم جعلتني أرضى بما طلبته مني تلك المرأة.... قالتْ سأخلصكِ منه بمجرد أن تأتي لي بتراب من سبعة قبور مهدمة... أجل، بعهدها سأجعله يدخل منادياً بطلاقكِ.... تراب القبور وحده سيكون معجزتكِ للخلاص منه... إجلبيه.. وإطمئني سيتركككِ بعدها الى غير رجعة،

هذه السنوات من الموت تكفي أليس كذلك؟؛ تشجعي وادخلي المقبرة، إنها الظهيرة ادخلي قبل أن ينتبه لك الآخرون.... قلتُ لها في بادئ الأمر لا أستطيع صدقيني، فأجابتني كيف لا تستطيعين؟ مَنْ الذي يستطيع إذاً؟ مَنْ ينوب عنكِ؟؛ مَنْ يسعى الى خلاصكِ بدلاً عنك؟ وأنتِ الفاقدة لأهلك؟ هيا اتركي الجبن جانباً !... قلتُ لنفسي وكررتها.... ادخلي ومدي يديكِ لهذه القبور المهدمة.... هيا خذي من كلّ واحد حفنة تراب ولنذهب هيا.... ألم تسمعها وهي توصيكِ بعدم التأخر؟

لأن اليوم سبت.... وهو اليوم الوحيد المخصص لأعمال الكراهية.... وإنّهُ ينتهي عند سماع الآذان؟.... هيا ستحلُّ الصلاة بعد ساعتين..... هيا أسرعي،

تقدمتُ الى القبور واحداً تلو الآخر... وأخذتُ من ظهر كلّ قبر حفنة تراب.... ووضعتها في كيس من البلاستك الأسود الذي جلبته لهذه المهمة وأنا أعدها: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست....

– ماذا تفعلين؟

صرخ بي رجل كان يحمل صندوقاً خشبياً يبيع فيه خواتم فضية

ومسابح وقناني عطر صغيرة، وهو يقترب مني، بسرعة كبيرة حاولتُ إخفاء الكيس في حقيبتي وأجبتهُ وأنا أحاول التماسك:

– لاشيء، إنها قبور عائلتي.

وأخذتُ أسوي تراب احد القبور بكفي، ناظرة الى الأسفل.

– أين أجدَ مَنْ يبيع البخور وماء الورد؟

سألته بصوت بالكاد يُسمع.

– هناك.

أشار الرجل بيده الى باب المقبرة، فأسرعتُ وركضتُ الى أحد الباعة الجالسين عند الباب وابتعتُ قنينة ماء ورد وبعض أعواد البخور وعلبة كبريت وعدتُ من جديد لمكاني.

رششتُ ماء الورد على القبور، وغرستُ أعواد البخور في ظهورها المهدمة وأشعلتها، وجلستُ الى جانب أحدها تحت مراقبة الرجل الذي لم يتركني إلا حين سمع أحدهم ينادي عليه، فتمسكتُ برباطة جأشي ومددتُ يدي الى القبر السابع، وبسرعة كبيرة غرفتُ منه حفنة تراب، وأسرعتُ بوضعها في الكيس ولففته ووضعته في حقيبتي وخرجتُ راكضة، وأنا أحاول التخلص من التراب العالق بعباءتي،

وبسرعة أيضاً أشرتُ الى سيارة أجرة كانت مارة من باب المقبرة إستوقفتها وصعدتُ فيها بعد مداولة بسيطة بيني وبين سائقها أخبرته فيها عن المكان الذي أقصده والأجرة التي سأدفعها له.

عند وصولْ السيارة بيت العرافة نزلتُ مسرعة وطرقتُ الباب ففتحته بنت صغيرة،

دخلتُ الى البيت وأسرعتُ الى حنفية ماء كانت موجودة في مدخل الدار وفتحتها وغسلتُ وجهي، فخرجتْ العرافة متبرمة وهي تقول:

– لماذا ادخلتيه معك؟ لماذا لم تتركيه في باب البيت؟

– لم تخبريني بذلك! أجبتها وأنا مضطربة، أحاول مسح الماء العالق بعباءتي.

–أعطني إياه وادخلي الغرفة... سأذهب به الى الشيخ الآن ليختمه لنا قالت ذلك وأخذتْ كيس التراب مني وإختفتْ،

بينما دخلتُ الى الغرفة وبقيتُ أنظر الى ماهو معلق فيها من أشياء تنتمي الى الخوف وعوالمه،

بعد مدة ليست طويلة رجعتْ لتقول:

– إذا خرجتِ ستجدين المكنسة مقلوبة الى الأعلى إرفعيها ستجدين التراب الذي أحضرته تحتها مصروراً... خذيه وإقرئي عليه سبع مرات (سورة الفرقان)، وسبع مرات (سورة الزلزلة)، وأنتِ تفرقين بين ذراته، ثم اذهبي وسيري خلف أيما جنازة وذري جزءاً من هذا التراب وراءها وأنتِ تقولين:" اللهم، مثلما فرقتَ بين صاحب هذه الجنازة وأهله فرق بيني وبين فلان ابن فلانة" واذكري اسم زوجك واسم أمه وأعيدي ذلك ثلاث مرات، أما الجزء المتبقي من التراب فرشيه في باب عتبة بيتك وحينها لن يقترب من البيت الذي به تعيشين، هيا إذهبي، ستجدين الجنائز منتظرة عند باب الولي، والآن لا تنسي النقود، فقد قال الشيخ إنه دفن لزوجكِ أثرهُ بين سبعة قبور وسيجعله ذلك كارهاً لكِ وستخلصين من عذابه اليومي، صدقيني!

ناولّتها النقود وخرجتُ لأجد المكنسة على الحال الذي وصفته لي العجوز مددتُ يدي إليها وقلبتها وأخرجتُ صرة التراب من تحتها، وأعدتها الى مكانها السابق داخل حقيبتي وأسرعتُ الى سيارة أجرة ثانية واستقليتها الى قبر الولي،

لم أؤدِ مراسيم الزيارة له، واكتفيتُ بالسلام عليه من بعيد، بعدها فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ مصحفاً صغيراً منها وجلستُ في إحدى الزوايا وشرعتُ في قراءة السورتين،

تطلب إكمال القراءة أكثر من ساعة كاملة شعرتُ فيها بتعب شديد ينتاب جسدي الذي بدا يتصبب عرقاً من حرارة ظهيرة قائضة،

تكاثرتْ الجنائز التي جاء أهلها للطواف بها على قبر الولي، وحين إنتهيتُ من القراءة اخترتُ واحدة كثر مشيعوها وسرتُ خلفها،

ودون أن ينتبه إليَّ الآخرون أخذتُ القليل من ذلك التراب وهمستُ:" اللهم مثلما فرقتَ بين صاحب هذه الجنازة وأهله فرق بيني وبين صلاح بن سعدية " أعدتُ الكرة ثلاث مرات ثم ذررتُ التراب خلف الجنازة ثم عدتُ راجعة أستقل سيارة أجرة ثالثة،

وقبل دخولي الى البيت رششتُ التراب المتبقي فوق عتبة الدار وأنا أسأل نفسي مستنكرة لكنني أعيش معه في البيت نفسه وقد أخبرتها بذلك فلماذا تقول لي إنه لن يقترب من الدار التي بها تسكنين؟...الى أين إذاً سيذهب بعيداً عن بيت أهله؟... بعدها طرقتْ الباب ففتحته لي عمتي فاسرعتُ و دخلتُ الحمام.

فتحتُ الحنفية المعلقة في سقفه وجلستُ تحتها دون أن أخلع عباءتي، وصرتُ أراقب التراب وهو ينساب الى البالوعة فأحسستُ

بأنني أتخلص من أجساد موتى كنتُ أحملهم طوال نهار كامل فانتابني عندها قليل من الهدوء، وناديتُ على (أبنة حماي) فجلبتْ لي ملابس جافة إرتديتها وأخرجتُ محتويات حقيبتي ثم دعكتها بالماء والصابون مع بقية ما كنت أرتدي من الملابس وخرجتُ الى باحة الدار محاولة تعليقها على الحبل كي تجفَّ،

لم أكد أُنهي تعليق الملابس حتى سمعتُ طرقه المريع على الباب وصوته الأجش وهو يقول:

– إفتحوا الباب.

فتحته، دخلَ، نظر إليّ وهو يصيح:

– لماذا تأخرتِ عند الخياطة الى هذا الوقت؟ – وكنت أخبرته بأني ذاهبة اليها صباحاً وإنهال عليّ ضرباً وبالكاد أفلتتني منه عمتي، وعندما عاد الآن وهو مخمور تذكر الحادث من جديد وأخذ يضربني ضرباً مبرحاً وها أني دخلتُ الى بيتكم أحتمي بكم من ضرباته !

– مهما يكن ياصغيرتي فأن ماقمتِ به خطر للغاية وله عواقب وخيمة فكيف دخلتِ المقبرة وحدكِ وخصوصاً في وقت الظهيرة وكيف لم تحسبي حساب أخيكِ أو زوجكِ إذا شاهدكِ وأنت تسيرين وراء جنازة؟..... وكيف أصلاً صدقتِ هذه الاكاذيب؟ قالت أم غايب وأردفتْ المرأة الضريرة:

– الله يخلصك من هذا الشرير يا ابنتي.. تحلِّ بالصبر ياصغيرتي... أتركي الهموم وقومي... ألم تشعري بالجوع؟... هيا أعدي لنا شيئاً نأكله... لاأدري ماذا يوجد في الثلاجة فأنا كما تعلمين... لاأرى .

– حاضر خالتي سأقوم.

– لاتكلفي نفسكِ كثيراً اعدي عشاءً خفيفاً، قالتْ أم غايب حين رأتْ الشابة تقوم متوجهة نحو المطبخ لأعداد الطعام،

ثم تطلعتْ الى ساعة الحائط وهي تقول في سرها لو لم يكن الفتى استأمنني على أمه لعدتُ الى بيتي الآن فقد تركتُ التوأمين لوحدهما وأخشى أن يدب بينهما شجار لاينتهي.

وقبل أن تستغرق في تفكيرها سمعتْ طرقاً على الباب وجاءتها الشابة مرتجفة وهي تقول: – أرجوك خالة إذا كان هو لاتفتحي له الباب سيقتلني أرجوك وحاولتْ أن تختبئ وراء المرأة الضريرة التي مدتْ جسدها وكإنها تخبئها من القادم.

أكدتْ أم غايب لهما إنها لن تفتح الباب إذا كان هو الطارق ثم إقتربتْ من الباب وهي تسأل مَن الطارق؟

– أنا إفتحي الباب.... أنا أم صلاح جاء الصوت من الخارج.

– إنها عمتي أم صلاح قالت الشابة وهي تسترد أنفاسها أفتحي لها الباب خالتي بعد أن تتأكدي من عدم وجوده معها.

– أفتحي الباب لقد سقط صلاح من السلم وقد أعدناه تواً من المستشفى لقد كُسر حوضه أرجوك أفتحي الباب وتعاليْ فأنا متأكدة من إنك هنا فقد رأتك جارتنا أم علاء وأنت تدخلين الى هنا.

لم تنتظر الشابة أن تكمل عمتها كلامها بل أسرعتْ لفتح الباب لها ثم جلبتْ عباءتها وأرتدتها بسرعة وخرجتْ عائدة الى بيتها بينما أخذتْ السيدات الثلاث يتحدثن عن حادثة سقوط صلاح والباب مفتوح.

بعد مغادرة أم صلاح البيت أكملتْ أم غايب إعداد طعام العشاء وجلستْ تتقاسم أكله مع المرأة وقد شارفتْ الساعة على بلوغ العاشرة مساءً ولما يعد ولدها بعد.

أما التوأمان فقد تعشيا أيضاً وهما يستذكران الكثير من أحاديث جدتهما الممتعة وحاولا أن يناما بعد أن تفحصا ما رسما من صور جاد عليهما بها الصوت الذي سمعاه،

لم يتعودا النوم لوحدهما فجدتهما تعودتْ ومنذ وجودهما أن تكون حارساً ليلياً لأحلامهما فهي كلّما حلّ المساء فرشتْ فراشها بموازاة سريرهما وتبادلتْ معهما حكايا صغيرة قبل أن يغطّى بنوم عميق.

هذه الليلة وبالرغم من إطباق صمت الليل الموحش على آذانهما لم يجلب لهما معه النعاس.

حاولا أن يسترقا السمع لصوت الصمت علّهما يجدان فيه شيئاً يسليهما أو شيئاً يغريهما على رسمه.

فأمنية النوم لوحدهما ليس لها أن تتحقق الآن لكنهما لم يجدا ضالتهما وهنا قررا أن يستلقيا على ظهريهما كالمعتاد فوق سريرهما ويغمضا عيونهما طلباً لسنّة من النوم.

تذكرا ما أخبرتهما به جدتهما حين قالت إذا صادف يوم ولم تستطيعا النوم اغمضا عيونكم وقولوا "ياكاسي الجنوب العارية، ويامشبع البطون الجائعة ويامنيم العيون الساهرة إسمح لعيني أن تنام"

رددا جملة جدتهما همساً وحاولا الإسترخاء بإغماض عيونهم،

لم يفلح الأمـر في البـدء لكن تكرار هذه الجـملة ومـحـاولة النوم القسري جعل دوامة النوم تقترب منهما رويداً رويداً، وشعرا بأنهما يدوران معها كلاً على حدة، دوامة تتغاير ألوانها مع كلّ دورة ولن يصلا أبداً الى نهايتها، دوامة بدايتها النعاس وقاعها النوم وليس لهما إلا الإستسلام لها.

لم يكادا يستسلمان للنوم حتى أفزعهما قليل من صوت آلات يدوية كانت تحاول فتح قفل باب دكان جدتهما،

إستيقظا محاولين فهم مايحدث في الخارج، الخارج الذي إعتقدا إنه محـرّم على الآخرين الإقـتـراب منه لأنه ملك لشـخص مـا، ملك يخصُّ جدتهما فقط دون سواها، فهو مكان محمي بملكيته لجدتهما فكيف تستطيع يد ما اختراقه دون إذن منها.

أرتجفا هلعاً وهما يسحبان جسديهما كي يستقيما في جلستهما حتى وصل لهما صوت ضعيف من رجل يحثُّ زميله على الإسراع في كسر القفل.

علا وجيب قلبيهما حتى كاد يُسمعْ وعلتْ وجه كلٍّ منهما قطرات عرق. وهما يتصوران وجهين قبيحين لرجلين يحاولان سرقة الدكان،

وتبادر الى ذهن الفتاة أسئلة أرادتْ أن تبوح بها لإخيها لكنه زمَّ شفتيه ووضع سبابته فوقها وهو يصدر صوتاً خافتاً لإسكاتها..

– إشششششششششش .

إمتثلتْ لأمره خائفة، وصارا يتسمعان لما يجري في الدكان،

الدكان الذي لم يعد خاصاً بجدتهما بل صار عالماً منتهكاً من قبل

اللصـوص، وربما لم يكتفِ هذان اللصــان بما في ذلك الدكـان من بضاعة فتمتد أيديهما نحو باب البيت فتقع الكارثة،

كارثة موت توأمين ليس بإمكانهما إستدعاء أحد ما لنجدتهما،

لكن وجيب قلبيهما بدأ بالإنخفاض وهما يتسمعان لصوت الرجلين وهمـا يغـادران المكان بعـد أن حمـلا كلّ البضـاعـة التي لم تكن قـد أُفرغتْ بعد من صناديقـها في سيـارة وإنطلقا بسرعة البرق ليـخلفا للتوأمين بعدهما حيرة على شكلٍ تساؤلات..

ماذا نفعل الآن؟ كيف ستتصرف جدتي؟

من أين لنا بمصدر رزق آخر للعيش؟

وفي غـمـرة كلّ تلك التـسـاؤلات عـلا صـوت الآذان من منـارة أحـد المساجد القريبة.

أول الأمر ذعرا منه لكن سؤالاً نزّ من شفة الفتاة..

– هل رأى الله ماحدث قبل قليل في دكان جدتي؟

– أجل أكيد أجابها الفتى وهو يحاول أن يخفي إرتباكه.

– ولماذا لم يمنعهما من ذلك؟

– لاأدري، ربما منعهما من الدخول الى البيت والعثور علينا.

– ربما.... أجـابتـه الفـتـاة وهـي تحـاول إخـفـاء إسـتـهـزائهـا من ردٍّ إخيها وأردفتْ قائلة:

ماذا سنفعل الآن؟

– لاأدري..... أجابها الفتى ويده تومئ لها بجلوس مرتقب!

أمـا العـجـوز وحـال سـمـاعـهـا صـوت الآذان قـامتْ وصلتْ وأعـدتْ

طعام إفطار للأخرى الضريرة التي كانت تغط بنوم شديد نتيجة الدواء الذي إبتلعته كمخفف للألم.

كان هنالك شعور خليط من قلق وألم يعتمل داخل صدر المرأة،وشيء من التنبؤ بسوء قد حدث،

سكبتْ لنفسها شيئاً من الشاي وقرّبتْ القدح من فمها لكنها لم تستطع أن تفتحه لتشرب الشاي، فتيقنتْ مع نفسها إن أمراً ما قد حدث.

وقفتْ وذهبتْ صوب المشجب الذي علّقتْ عليه عباءتها ورفعتها إليها وحملتها في يدها إستعداداً للذهاب ولكنها لم تتمكن من الخروج إذ إن المرأة الآخرى لما تزل نائمة.

صوبتْ نظرتها الى الساعة فوجدتْ عقاربها تقترب من السادسة صباحاً إزداد قلقها وأخذتْ تقطع الغرفة جيئة وذهاباً وهي تنظر تارة الى الباب وأخرى الى الساعة، غير إن الوقت لم يتجاوز السادسة بعشر دقائق حتى سَمِعتْ طرقاً على الباب طرقاً جاء لينقذها من ترقبها وقلقها، وصدق ماتوقعته حين أسرعتْ تفتح الباب فإذا بالولد قد عاد بصحبة اخته ويدخل من عتبته بينما أخذتْ ترحب بهما وتودعهما في الوقت نفسه.

أخبرتهما عند خروجها أن يبلغا تحياتها لوالدتهما النائمة واقفلت الباب وراءها مسرعة.

صارتْ خطواتها تتسارع أكثر حين أبصرتْ حشداً من الناس يقف أمام بيتها، وتيقنت إن مكروهاً ما قد حدث،غير إن أحد الاولاد أبصرها قادمة فأسرع صوبها راكضاً وهو يصيح:

– خالة أم غايب..

– نعم، ردتْ عليه العجوز ونظرها يحدق بذلك الحشد وكإنها تحاول إختراقه لرؤية ماحدث ومايحدث.

كان كلّ قلقها ينصرف نحو التوأمين وأسئلة عدة تتوالى على رأسها، هل شاهدهما أحد ما ياترى؟ هل خرجا مثلاً فكشف سرهما؟ هل تعرضا للإذى فطلبا مساعدة أحد وصارا الآن فرجة لهذا الحشد؟..... لايهم سأتحمل كل مايحدث فقط ليطمئني أحد ما بأنهما بخير،

– خالة أم غايب كرر الصبي كلامه وإستأنفه ليقول سرقوا دكانكِ في الليل... وجدناه فارغاً !

ماذا؟... ذهلتْ العجوز فهي لم تتخيل وجود أحد ما يمكنه أن يفعل هذا ويسطو على مصدر رزقها لكنها تماسكتْ حين إقترابها من ذلك الحشد الذي بدأ عليه الأسف لما حدث لهذا العجوز التي كانوا يعدونها أماً يلجأون لها ساعة الحاجة الى المعونة.

حاول بعض النساء الواقفات تهدئتها حين دخلتْ الى دكانها وأخذتْ تتفحص بأسى قفله الكبير المكسور وأمكنة الاغراض التي لم تخرجها من صناديقها، ثم سرعان ما أغلقته وطأطأتْ رأسها ودخلتْ بيتها الذي فتحتْ بابه بمفتاحه الأوحد وحمدتْ الله في سرها إنه كان الى الآن مغلقاً.

بسرعة تخطتْ الممر ودخلتْ باب غرفة حفيديها، وبسرعة أكبر نهضا وقابلاها بوجهين يعلوهما أكثر من إنفعال..

أنا بخير لاتقلقا.. قالت هذا لهما وأسقطتْ جسدها بتهالك على الأرض جالسة فجلسا قبالتها لايعرفان ماذا يقولان لها.

تفحصتْ وجهيهما وكأنها تريد إخبارهما بأن ما حدث لها أهون مما كان لو أصابهما مكروه لكنها إكتفتْ بالنظر إليهما،

غير إن دمعة حارقة سالتْ من إحدى عينيها لتنحدر على خدها وتسقط على شيلتها، مسحتها واعتدلتْ في جلستها وضمتْ كلتا يديها على رأسها وطأطأته لترحل في متاهة أسئلة لاتعرف لها أجوبة.

– سنأتي لك بقليل من الماء، قالا لها وهما ينهضان خارجين.

– لا.... لا أريد شيئاً صدقاني وتعلقتْ بثيابهما وكإنها تجد عوناً ببقائهما معها، جلسا وبدأتْ جلبة الأصوات التي في الخارج تقل تدريجياً، وخيّم سكون على المكان كانت تتخلله بين الحين والآخر تنهدات العجوز،

بينما أنتظر الفتى أيما فرصة ليضع كفّه على كفٍّ جدته لذا صار يترقب أن تكف عن إسنادها الى خدها.

وما أن فعلتْ ذلك حتى أسرع وضم بكفّه كفّ جدته ضمة تعني بأنه يتمنى أن يساعدها بأي شيء.

ولما أحستْ بذلك نظرتْ له نظرة طويلة، تشي بعدم امكانية إستعادة ما تم فقده، فليس من سبيل لذلك وبأية محاولة.

غيرإن الفتاة بادرتْ لسؤالها:

–جدتي ماذا ستفعلين؟ هل يوجد من يستطيع إعادة مسروقات الدكان؟

– لا...أجابتها جدتها بصوت ينم عن حزن عميق.

– جدتي..... فكري ! قال الفتى مواسياً.

– ها أنذا أفكر ولكن إذا اتصلتُ بالشرطة ماذا سأقول لهم؟.. هل أكتفي بقولي سُرِق دكاني، وإذا سألوني بمنْ أشكُ.. ماذا سأقول وبماذا تفيدني كلمة لاأدري إذا قلتها؟.. لوكان عندي دليل لربما توصلتْ الشرطة الى اللصوص لكن.. لادليل لديَّ!

–نحن سنساعدك، نحن قادران على رسم وجوه اللصوص صدقيني جدتي!

– لصوص، قاطعته جدته، وهي تفلتُ كفّه من كفّها متسائلة وكم كان عددهم؟

– جدتي سمعنا صوتاً لشخصين.. طلب الأول من الآخر أن يسرع في كسر القفل... وحين دخلا الدكان سمعنا الآخر يحثّه على رفع الصناديق، كانا شخصين... صدقيني.

– لا لا لا جدتي ربما كان معهما شخص ثالث ينتظرهما في السيارة قالت الفتاة بسرعة.

– آه.. لاحول ولاقوة إلا بالله! ألم يسمعهم آخر غيركما؟ ألم يفتح الباب أحد ما ويشاهدهم ألم يشل الله أيديهم عن رزاقي.. لماذا! لماذا! وبدأتْ بالبكاء.

– جدتي أرجوك لاتبكي ألم نخبرك بإننا سنساعدكِ على العثور عليهما، قال الفتى.

– إصمتا لاأريد أن أسمع كلاماً، صرختْ في وجهيهما وتابعتْ

تقول، حتى لو رأيتما اللصوص فعلاً فكيف أسمح لآخر أن يكشف سرّكما هل جننتما؟.... هل تريدان أن نصبح فرجة للعالم؟

– لكننا سنرسم لك الوجوه و... ردتْ الفتاة بصوت خافتْ ينم عن خجل.

– وأنا سأخذها الى الشرطة وأقول لهم هؤلاء سرقوا دكاني... أليس كذلك؟ قاطعتها العجوز وأردفتْ وإذا سألوني مَنْ الذي رسم صورهم بماذا سأجيب؟

شعر الإثنان بخنجر حزن يخترقهما وهما يريان أنفسهما عاجزين عن إبداء المساعدة حتى في أحلك الظروف.

سحبا جسديهما وتراجعا الى الخلف وعلى وجه كلّ منهما أسف شديد.

– سأخرج الآن لأرى ماذا تبقى في الدكان قالتْ العجوز جملتها وخرجتْ ليبقيا مثلما هما دائماً وحيدين ملتصقين لافائدة من وجودهما،

فقط ظلا مشدودين لصوت ما يحدث في الخارج، و سمعا خطوات الجدة الخارجة، وإغلاقها لباب الدار، وتهادى لسمعهما أيضاً صرير َفتحِ باب الدكان ودخولها إليه بخطوات واهنة،

لم ينبسا بأيما كلمة ولم ينظرا حتى لبعضيهما بل بحثا عن دفتر رسم كلٌّ منهما وفتحاه ليرسما لوحة لمشهد عاشاه سمعاً.

مشهد كُسِرَ به باب دكان جدتهما على يد لصين غريبين وحين أرادا رسم الوجهين تلفتا الى بعضهما البعض، فهما أصلا لم يعرفا

في كلّ حياتهما التي عاشاها سوى وجه الطيبين وجه جدتهما ووجهين لميتين معلقين في صورة، وقبل ايام قليلة ماضية أضيف الى معرفتهما وجه العلوية بملامحه الطيبة أيضاً، فكيف سيعرفان معنى الشر فيرسمانه؟!

– كيف يكون شكلّ الرجل الشرير؟! سألت الفتاة أخاها والعجب يعتري سؤالها.

– لاأدري، أجاب.... ربما يكون له أكثر من عينين وأنف وفم كبيرين وأذنين كبيرتين جدا.

– لماذا؟ سألتْ الفتاة.

– حتى يسمع ويشم ويرى في الظلام ويلتهم من يقترب منه.

– وكيف سترسم وجهه إذاً؟ سألته من جديد بحيرة.

– لاأدري.... أجابها واستغرق في الرسم بهدوء وحزن وجارته بالفعل نفسه.

وحين عادتْ الجدة الى الغرفة لم تدخل إليها بل إكتفتْ بالوقوف أمام عتبتها والنظر الى التوأمين وهما منهمكان بالرسم، فلم تجد كلاماً يمكن أن يكسر حاجز الصمت الذي بُني بينهما

غير إنها قليلاً قليلاً إجتازتْ العتبة واقتربتْ منهما ونظرتْ لما يرسمان، فوجدتْ صورتين متباينتين لشخصين منهمكين برفع صناديق تملؤها أغراض عديدة عن الأرض كانت اللوحتان مختلفتين كلّ الإختلاف غير إنهما تشابهتا بشيء واحد هو إنهما لوحتان لوجهين بلاملامح.

كادتْ تسألهما عن الرسم غير إن صوت قرع الباب جعلها تخرج مسرعة لفتحه ليدخل وجه يألفانه يتحدث بصوتٍ عالٍ ومرتبكٍ في آن

– لاحول ولاقوة إلا بالله..... كيف حدث ذلك؟

– تفضلي علوية، أدخلي إنه قضاء الله! اجابتها العجوز وهي تفسح لها الطريق لتدخل الى الغرفة فيقابلها التوأمان بفرح مشوب بالحزن والتوجس أيضاً.

قبلتهما بحنو كبير فتركا الرسم وجلسا قبالتها فقربتهما إليها وبدأتْ مع العجوز حواراً أشبه بالعتب للقدر أولاً ولها ثانياً فأخذتْ تلومها على تركها التوأمين لوحدهما وكيف جعلتها طيبتها تبيتُ خارج بيتها فتُسرق بضاعة دكانها قبل أن تفرغها حتى من صناديقها،

غير إن العجوز لم تردْ عليها سوى ببعض الكلمات التي أرادتْ بها أن تواسي نفسها من مثل:

– دفع الله ماكان.. تعلمين.. إن وجودي في البيت أو في ساعة وقوع السرقة لن يجدي نفعاً..لأن اللصين يبدو كإنهما خططا للسرقة لحظة أن شاهدا السيارة التي أحضرتُ بها البضاعة.

وهل رأيت أحداً ساعتها... شخصا ما يمكن أن تشتبهي به؟ سألت العلوية بسرعة:

– لاوالله لم أنتبه لأحد كنتُ مشغولة بتنزيل البضائع من السيارة وحتى لم يساعدني سوى السائق في إنزالها ردتْ العجوز.

– هل تعتقدين إنه السائق؟ سألتْ العلوية.

–لا أريد أن أظلم أحداً ياعلوية... المهم سأقوم وأحضر لك شاياً قالتْ العجوز.

– لا...لا أريد شيئاً فقط أجلسي لنتحدث أجابتها العلوية.

– بل سأقوم لأعد شيئاً لنأكلهُ تصوري حتى هما – وأشارتْ الى التوأمين – لم يأكلا شيئاً منذ أمس قالتْ العجوز.

إذا كان الأمر كذلك فسأكل معكم.... أنا أيضاً جئتُ قبل أن أضع في فمي أيما طعام....الخبر أفقدني شهيتي.

قالت العلوية بينما تركتْ العجوز الغرفة متوجهة نحوالمطبخ لإعداد الافطار الذي كان قد تأخر، فأدارتْ العلوية وجهها نحو التوأمين وطلبتْ منهما قصّ ماسمعا لها، فتناوبا على ذلك وصارا يجسدان ما سمعاه بحركات تمثيلية جسدتْ المشهد الليلي الذي عاشاه خوفاً.

شعرا بنوع من الراحة وهما يجدان أخيراً إنساناً يقتسمان معه مشاعر الخوف الذي عاشاه والقلق الذي يحسان به حيال ماسيحدث لجدتهما.

بدا ذلك واضحاًعلى حركاتهما وتعابير وجهيهما.

طلبتْ منهما أن يتركا الموضوع لها وللجدة فهما وحدهما القادرتان على حلّ هذه المشكلة لأنهما في الأقل خبرتا الحياة.

دخلتْ الجدة تحمل صينية الطعام فقامتْ العلوية وتناولتها من يدها ووضعتها على الأرض وهي مستمرة في كلامها للمراهقين اللذين اعتدلا في جلستهما لحظة مشاهدة دخول الجدة للغرفة.

– الله لن يتوانى لحظة عن مساعدة المحتاجين إليه وهو من

سيهدينا الى طريقة تجعلنا لانحتاج الى أحد.. صدقوني.

جلسوا جميعاً وتوسطتهم الصينية وتحول الحديث مرة أخرى الى حوار بين المرأتين وأبتدأته العلوية قائلة:

– أسمعي أم غايب لدي قريبة عندها حمام عام للنساء في طرف السوق وقد توفيتْ من كانت تعمل عندها... غدا آتي إليك ونذهب معاً لها، وحين تعملين عندها ستوفرين مالاً كافياً لشراء بضاعة جديدة لدكانك....صدقيني!

– الله كريم، أجابتْ العجوز متحسرة وهي تقطع رغيفاً الى نصفين وتعطيه للتوأمين اللذين بان على ملامحهما الإستبشار وتأكدا من إن فرحاً ما سيكون بحضور هذه المرأة غداً.

مرّ الوقت على التوأمين طويلاً وثقيلاً ينتابه شيء من الترقب وإنتظارغد يجيء محملاً بإنتظار آخر لموافقة سيدة لايعلمون شكلها ولا القرارالذي ستتخذه إزاء طلب جدتهما للعمل عندها لكن شيئاً ما كان يعتمل في داخلهما يشبه مسحة من ضوء في ليل دامس كانا يتكئان عليه ويتمسكان به هو إن تلك السيدة كانت قريبة للعلوية لذا فإنها لابد أن تكون مثلها تماماً أو في الأقل تشبه طيبتها.

اما الجدة فلم تكد تقدر على رفع جسدها عن الأرض وبدتْ وكإنها متسمّرة في جلوسها أو ميتة لولا حسرة تطلقها بين الأونة والأخرى،

وحين سمعتْ الآذان لبتْ دعوته ولم تطل الوقوف في حضرة الرّب كما كلّ يوم بل أسرعتْ في تقديم صلاتها للرب الذي وجدتْ نفسها اليوم مجبرة على طاعته ليس أكثر، فهو حتى لم يردع اللصوص عن دكانها بل على العكس من ذلك كان لهم عين حارسة تحميهم من

عيون العسس. أكملتْ صلاتها على عجالة وعادتْ الى جلستها متجمدة بحزنها،

وما أن مرّ اليوم الهلامي وحضر الغد حتى تلاشت نكهة الأفعال الأخرى المتمثلة بالصلاة أو الأكل أو حتى الرسم، وصار كلّ فعل يتضمن في داخله فعلا أقوى ألا وهو التنصت لوقع خطى قادمة أو طرق باب البيت.

وها هي العاشرة صباحاً تسحب نصفها والمرأة المنشودة لم يقع ظلها على دكة الباب بعد !

تسلل القلق الى الأرواح الثلاث، وبدأ يظهر عليها على شكل حركات قضم لإظفر إبهام اليد اليمنى كما كان يفعل الفتى، أو الإستمرار في عضّ الشفة السفلى كما كانت تفعل أخته، أو تحريك القدم اليمنى كما فعلتْ ذلك جدتهما وهي جالس.

دوامة القلق تلك لم يتوقف الإنزلاق بها إلا عند إختراق صوت الطرق المميز لباب البيت لآذانهم المترقبة، فإتجهت الجدة بسرعة صوبه وفتحته لتدخل منه المرأة التي ينتظرون،

لم تطل المكوث لديهم وإكتفتْ بتوجيه التحية للتوأمين اللذين أسرعا لملاقاتها كطفلين صغيرين فقابلتهما بقبلات حميمية وكأنها لم ترهما من زمن بعيد، ثم لتقول الى الجدة:

– بسرعة قومي وارتدي عباءتكِ هيا لنذهب الى هناك، ثم توجهتْ الى التوأمين قائلة:

– إذا تأخرتْ جدتكما فهذا يعني إنها قد عملتْ هناك. لاتقلقا

وأعدا طعام الغداء لكما... أما إذا عدنا بسرعة فستعد جدتكما الطعام كالمعتاد.

لم تعجبهما الجملة الثانية التي قالتها العلوية وتمنيا أن يقع التأخير إذا كان دلالة على قدوم حال أفضل لهم.

ودعتهما جدتهما أيضاً بوصايا مكررة ألفاها منها ساعة خروجها من البيت وصايا من مثل لاتفتحا الباب لأحد مهما طرقه، إنتبها لنفسيكما جيداً، لاتتشاجرا.

وخرجت المرأتان ليبقيا يبحثان عن عمل آخر غير الرسم يتغلبان به على الإنتظار فلم يجدا سوى الدمى التي لم تعد تغريهما باللعب فأشاحا عنها وجهيهما وبكثير من الرتابة سحبا دفتريّ الرسم وبدأا يخطان عليهما تفاصيل مايسمعان، رسما صورتين متغايرتين لأقدام تسيرعلى الرصيف، أقدام متغايرة في الأشكال والسرعات أقدام نساء وأطفال وعجائز ورجال، كانا يتمنيان لو إنهما شاركا أصحابها في وجهتها وحين انتهى الرسم أخذا يتأملانه ولم يتكلما.

فقط حين نظر الفتى الى أخته وفي عينيه نظرة تساؤل عن سبب ذلك الرسم سالتْ دمعة على سفح خدها فأيقن أن حزناً حارقاً سيغلف السؤال فإلتفح بما بينهما من صمت وعاد الى تأمل مارسماه من أقدام.

أما المرأتان فقد وصلتا الى الحمام المكان العام والخاص على حد سواء،

عام لإتساعه لجميع نساء المدينة والأخريات القادمات من الريّف،

وخاص كونه عالماً غير مسموح لمن لايحمل صفة مرأة بالإقتراب منه وإن وظفّ لذلك الأمر ذكاءه.

كان بابه الخشبي الكبير ذو الردفتين مفتوحاً بينما أقتعدتْ إحدى النساء أرض دكته الأولى وإفترشتْ الى جانبها قطعة من قماش مخطط وضعتْ عليها أشياء تحتاجها المستحمة، كالكيس والليفة وقوالب الصابون والسبداج والديرم والحنة والوسمي والحجر الأسود والأبيض والأمشاط ومقراض ومقص صغير، وما أن رأت العلوية قادمة حتى كادتْ تقوم من مكانها مرحبة إلا إن العلوية سارعتْ إليها ومنعتها من القيام وهي تكرر(أستغفر الله استغفر الله) وإنحنت عليها وتبادلتْ المرأتان القبل فيما بينهما، ثم عرفتها على أم غايب فبادرتْ الأخرى بالسلام عليها أيضاً ثم دخلتا الى الحمام بعد أن تأكدتا من وجود صاحبته.

إجتازتا الممر ذا البلاطات المربعة الكبيرة وإتجهتا يساراً حيث غرفة المالكة التي كان ظاهراً على محتوياتها الترف كالتخت العالي المفروش بالقطيفة والنرجيلة المذهبة المركونة الى جانبه والسجادة الكاشان التي تفترش أرضيته ولوحات النساء المتنعمات اللواتي ينتمين الى زمن الحريم والبخور الجاوي الذي يضوع في داخلها.

كلّ ذلك بدا مغايراً لشكل الباب الخشبي الرئيسي الكبير المتهرىء الذي كسا الصدأ مقبضيه النحاسيين.

وافقت المالكة على عمل أم غايب لديها ليس إذعاناً منها لطلب قريبتها ولكن لأنها رأت في تلك المرأة مواصفات المرأة التي تستحق أن تعمل في مكان خاص كهذا فأم غايب بالرغم من إنها عجوز إلا

إنها قوية ذات همة تمكنها من القيام بأكثر من عمل في آن واحد لذا فقد ساومتها الأخيرة بالموافقة شرط ان تحلّ محل (المدلكجية) و(الخلفة) في آن معا.

لم تترد أم غايب في قبول ذلك الأمر بينما قفزتْ من عين العلوية نظرة إستنكار الى وجه قريبتها التي تحاشتها بالوقوف والطلب من العلوية مرافقتها الى داخل الحمام كي تطلعها على تفاصيله.

وحين لمحتْ ذلك العلوية ودعتهما عائدة الى بيتها محتفظة في لنفسها ببعض الشكوك التي راودتها من عدم إستطاعة صديقتها الجمع بين العملين معاً.

دعتْ لها أم غايب بالتوفيق وطلبتْ منها معاودة زيارتها الى البيت كلّما وجدت لديها وقتاً فائضاً.

سارتْ صاحبة الحمام أولاً وتبعتها العجوز بخطوات متسارعة وهي تصغي لما تقوله كي لاتنسى التعليمات التي تتلقاها منها،

شاهدتْ كلّ أجزاء الحمام الذي بدا منعشاً وطلبتْ منها أن تقوم بنزع ثوبها طويل الاكمام هذا وإستبداله بآخر بدون أكمام أو بأكمام قصيرة كي يسهل عليها تدليك من تطلب منها ذلك،

تفحصتْ العجوز المكان بعين المكتشف القلق أولا وسرعان ما سحرها لون سحب البخار المتصاعد الى الاعلى نحو قبة الحمام الذي يتسرب من زجاج فتحاتها الصغيرة ضوء خافت، فسرى في عظامها دفء لم تألفه من قبل،

غير إن شيئاً من خجل لفّها وهي ترى نساء عاريات يتشاغلن

بتنظيف أجسادهن غير مباليات بما تفعله الأخريات،

وصم آذانها أول وهلة صوت (القباقيب) المنبعث من أرجل المستحمات وهن يتنقلن على الأرضية الرخام بين الأحواض الصغيرة والصبّة أو بين المنزع والحوض الكبير أو (غرفة الدوة)،

بدأتْ تحفظ ما تقوله المالكة وتحاول أن تنفذه لتؤكد صلاحيتها لهذا العمل الذي لم تمارسه من قبل،

فأسرعتْ وعلقتْ المناشف المتروكة على الأرض بمشاجبها كما أخبرتها بذلك سيدتها وأعادتْ وضع (الطوس) بإنفراد تحت بعض الحنفيات،

غير إنها لم تحظ بفرصة تدليك جسد إحداهن كونهن وببساطة كن متوجسات من القادمة التي لمّا تزل غريبة عن عالمهن،

وقبل أن ينتهي اليوم أعطتها المالكة مفتاح غرفة صغيرة مقابلة لغرفتها كانت تشغلها (الوكيلة) السابقة وطلبتْ منها أن تستعملها لوضع حاجياتها بعد أن تنظفها، فأخذته منها ودسته في جيب ثوبها الأيمن وخرجتْ عائدة الى البيت ممنية النفس بالأجر الإسبوعي الذي ستتقاضاه من عملها هذا، وما أن دنتْ عقارب الساعة من الخامسة عصراً حتى إنفتحتْ شهية التوأمين للطعام فأعداه وجلسا يأكلان وهما يترقبان قدوم جدتهما من عملها كان الفتى يأكل بنهم ويتحدث واللقمة في فمه وفي دواخله يعتمل الفرح

– أعتقد إن جدتنا قد تسلمتْ عملها !

– نعم. اعتقد ذلك فقد تأخر الوقت وهي لم تعد أجابته اخته،

وابتسامة كبيرة تعلو شفتيها وهي تراقب فرح أخيها المبثوث على شكل سرعة في حركة المضغ وإبتلاع الطعام.

كلّ شيء في داخلهما تبلل بالأمل، حتى الترقب صار مضمخاً بعودة الجدة بصورتها المعتادة حمامة أليفة بجناحين تضمان تحتهما حياة كاملة،

جاءتْ الجدة وأدخلتْ الى قلبيهما فرحاً ينتظرانه،

ومرتْ ثلاثة أشهر وهي تعانق الصباح بخروجها ويحين حضورها بحلول إبتسامة المساء الهامسة بهدوئها المسالم، أما اليوم فكان يوم عطلتها الذي أرادته مخصصاً للعناية بالبيت ونظافة الحفيدين فما أن إستيقظ الجميع حتى بدأوا يعملون عملاً جماعياً.

نزع الحفيدان شراشف السرير والمخدات وجمعا ملابسهما المتسخة وحملاها الى سلة بلاستيكية موضوعة في الحمام ووضعاها فيها ثم عادا ورتبا أوراقهما ودفاتر الرسم وأقلامهما ووضعاها على الرفّ الخشبي ودخلا المطبخ لغسل الأواني،

بينما قامتْ جدتهما بكنس أرضية البيت، وحين وصلتْ الى الباب الداخلي لدكانها عانقها حنين الى دخوله،غير إنها لم تفق من صدمة السرقة بعد فهي لم تكن تفهم معنى أن يسرق إنسان من إنسان آخر قوته الذي يعيش منه،كانت ترى الجميع طيبين وحتى لو سحقتهم الحرب المتوالدة التي يعيشونها فهم لن يتحولوا الى سراق، إرتعشتْ يدها وهي تقترب من الباب وتفتحه لتدخل، شاهدتْ بكثير من الحسرة كيف إحتلتْ الرطوبة والعفن رفوفه الخشبية الفارغة وكيف إشتبكتْ خيوط العنكبوت فوق سقفه.

واقتربتْ من أنفها رائحة تعفن لأحد الحيوانات فتعقبتها بعد أن تكممتْ بشيلتها فشاهدت فأرة كبيرة قهرها الموت أمام جحر صغير وقد انضغط جلدها على عظمها الهش، فخرجتْ وعادتْ بكيس نايلون ورفعتْ الفأرة النافقة وحملتها الى سلة المهملات في المطبخ.

– ماهذا؟ سأل التوأمان الجدة وبصوت واحد وهما يشيران الى ما رمته في سلة المهملات.

– فأرة ميتة ردتْ الجدة وهي تستدير عائدة الى الدكان.

– دعينا نراها... دعينا نراها كرر الفتى لجدته الطلب مرتين

– إبتسمتْ الجدة وهي تستدير مرة أخرى نحو حفيديها و تمدّ يدها الى السلة وترفع كيس النايلون الأسود وتفتحه وتضعه على الأرض وتعود ادراجها الى الدكان.

– أنظري إنها ميتة قال الفتى وهو يتفحص الفأرة عن قرب.

– نعم... مسكينة ربما ماتت من الجوع ردتْ الأنثى.

وجلسا القرفصاء وصارا يتفحصان الفأرة النافقة، لم يهتما للرائحة النتنة الصادرة منها بل إستهواهما الإكتشاف،

فهما لم يشاهدا فأرة، لم يكوّنا لها صورة إلا في حكايا الجدة عندما حكتْ لهما كيف ساعدتْ الفأرة الأسد وفكتْ أسره بقضمها الحبل

– ولكن لماذا لم تهرب حين لم تجد شيئاً في الدكان؟ سألتْ الفتاة

– لاأدري دعينا نسأل جدتنا؟ ردّ الفتى وهو يحاول الوقوف فإستندا على الحائط وقاما متوجهين الى جدتهما في الدكان،

دخلا الى هناك فبهرهما إمتزاج ضوء النهار الذي تسلل من بين لوحات الخشب المكسور لردفتي الباب الخارجي للدكان بالغبار الذي أثاره التنظيف فضبب المكان وبدتْ جدتهما لهما جسداً من غبار وهي تتحرك في المكان لتنظف كلّ ركن من اركانه،

شاهداها وهي منهمكة في ذلك وقد ربطتْ مكنسة الى عصا طويلة غليظة واعتلتْ ظهر أحد الصناديق الخشبية الفارغة محاولة إزالة بيوت العنكبوت من أركان السقف

– لا تقتربا صاحتْ بهما الجدة وهي تراهما يدخلان.

– أرجوك جدتي نريد أن نساعدك ! قالتْ الفتاة.

وردد الفتى.

– نعم نريد أن نساعدك.

– إذن إحملا لي سلة المهملات وتعالا.

بفرح كبير أسرعا ورفعا الفأرة الميتة عن الأرض وأعاداها الى السلة وحملا السلة بيدين إثنتين وأدخلاها لجدتهما ووضعاها بالقرب منها.

فقامتْ العجوز وأخذتْ تجمع التراب والأوساخ وتضعها فيها.

– والآن هل تستطيعان أن تأتيا لي بالدلو الذي في الحمام لقد ملأته ماءً انه ليس كبيراً لكن حاذرا أن تسقطاه.

– نعم. ردّ التوأمان عليها وبصوت واحد وخرجا مسرعين الى حيث الدلو في الحمام، رفعه الفتى بيده لوحده لكن أخته إعترضتْ عليه فتركه أرضاً ثم رفعاه معاً وبخطوات سريعة أدخلاه الى جدتهما.

– هيا إسكبا الماء على الأرض قالت لهما الجدة.

ففعلا ذلك وهما سعيدان.

أخذا يتتبعان الماء المسال على الأرض والذي يحاول أن يمتزج بالعالق من تراب على الأرض يكوّن لوحات ترابية لأشكال لم يعرفاها من قبل، أشكال تكونتْ على هيئة دوائر وأخاديد، إتسعتْ ابتسامة الجدة وهي ترى حفيديها يتتبعان تلك الرسوم الأرضية المتبدلة مع جريان الماء.

– هيا إذهبا وإجلبا لي دلو ماءٍ آخر، قالت الجدة لهما وهي تفصل المكنسة عن العصا لتغسل أرضية الدكان.

تنبه الحفيدان الى صوتها ورفعا الدلوالفارغ من الأرض وأسرعا الى الحمام فرحَين ثم عادا به والماء يتصبب من فمه الواسع،

تكررملء الدلو مرات عدة حتى صارتْ أرضية الدكان الإسمنتية ناصعة النظافة غير إنها لمّا تزل مبتلة

– عودا الى الداخل أريد أن أفتح الباب الرئيس للدكان حتى تجفّ أرضه قالت الجدة موجهة الكلام لحفيديها.

فأذعنا للأمر وخرجا بشيء من الحزن لكن العجوز تداركتْ الأمر وأسرعتْ بإقفال الباب الداخلي للدكان وصاحتْ بهما.

– هيا لنكمل التنظيف!

إستعاد التوأمان فرحهما وإنهمكا بالعمل مع جدتهما بعد ذلك، وحين إكتمل التنظيف خلعتْ العجوز ثيابها المتربة ورمتْ بها الى سلة الملابس ولم تبقَ مرتدية غير ما إعتادتْ أن ترتديه في مكان عملها في الحمام، ثوب طويل بلا أكمام، ثم جاءتْ بقدر كبير من الماء ووضعته

في الحمام وطلبتْ منهما الإستعداد لحمامهما الإسبوعي،

فقد تكونتْ لديهما مايشبه العادة الإسبوعية في عطلة جدتهما أن يستحما وقبل أن يقوما بنزع ملابسهما وتركها أمام باب الحمام جاءت لهما بعصابتين سوداوين وعصبتْ عيونهما ثم أمسكتْ بأيديهما وجعلتهما يتجاوزان عتبة الحمام بعد أن نضا كلّ ملابسهما عن جسديهما فبدوا وكأنهما شخصين مسحوبين الى غرفة التعذيب أكثر من كونهما ذاهبين الى الإستحمام،

أوقفتهما الجدة وطلبتْ منهما أن يرفعا ذراعيهما الى الأعلى فبان ماتحت ابطيهما من شعر قليل بدا وبراً ناعماً ذا لون أصهب،

فإنحنتْ الجدة وأخذتْ بيدها الصابونة وبللتها بالماء حتى أرغتْ ثم رفعتْ تلك الرغوة ووضعتها على إبطيهما،

كان التوأمان يشعران بإنفعالات مختلطة ومتغايرة في آن وهما يحسان برغوة الصابون فوق جلديهما إنتابتهما القشعريرة أولاً وإختلطتْ تلك القشعريرة بالخجل حين لامس كفّ جدتهما المغمس بالصابون شعر عانتهما،

أحستْ الجدة بذلك الخجل فأخذتْ تحاول تخفيف تلك الإنفعالات عنهما وهي تفرّج عن فخذي كلاً منهما بيدها وتتكلم عن أهمية نظافة الجسد وطهارته.

بعد ذلك وضعتْ رغوة الصابون على رأسيهما وبدأتْ بفركهما كلاً على حدة بعد أن إنحنيا الى الأرض، ثم إستدارتْ حولهما وأخذتْ تنظف جسديهما بكيس من قماش أسود مصنوع يدوياً، ودلقتْ الماء عليهما فبدا جسديهما بلون وردي يلتمع من أثر التدليك، بعدها قامتْ

بتنشيفهما وإستدارتْ نحو ثيابهما المعلقة على الحائط بمسامير أعطتْ كلّ واحد منهما لباسهما الداخلي فأرتدياه، وكانت تتمنى لو إنها تشتري حمالة لثديي حفيدتها لكنها وجدتْ هذا مستحيلاً لإلتصاق صدرها بصدر أخيها من الجانب،

فأتتْ بالقميص الواحد الملتصق وأدخلتْ أذرع الحفيدين في أكمامه الأربعة وربطته بالأزرار بعدها رفعتْ العصابتين المبتلتين عن عيونهما واعطتهما البجامتين المنفصلتين فأرتدى كل منهما بجامته وأعادا لبس نعاليهما وخرجا من الحمام بعد أن لفّا رأسيهما بالمناشف.

– نعيماً... قالت الجدة لهما وأردفتْ هيا عودا لغرفتكما حتى أستحم أنا... فقد أصابتني الغيرة من نظافتكما وضحكتْ، فضحك التوأمان وعادا الى الغرفة بينما رفعتْ ملابس حفيديها المتسخة ووضعتها في السلة الى جانب ملابسها كي تغسلهما في يوم آخر مقبل، ثم دخلتْ الحمام وشرعتْ تغتسل.

كعادتها في كلّ صباح تركتْ لهما افطارهما المعد من بيضتين مسلوقتين وقطعتي خبز وشاي في المطبخ وخرجتْ الى عملها بعد أن تناولتْ إفطارها اليومي.

أحكمت قفل باب البيت عليهما، بينما كان طعام الغداء المكوّن من مرق فاصولياء ورزّ موضوعاً كلاّ في قدره الصغير ينتظر من يعيد تسخينه قبل الأكل، وكالمعتاد إستيقظا وغسلا وجهيهما وتناولا إفطارهما وبدأا يرسمان لوحاتهما المتشكلة مما يسمعان من أصوات،

وبغمرة إنهماكهما إخترق صوت إرتطام حجر إذنيهما كان مصدره السقف، رفعا نظرهما نحو ذلك الصوت الذي تكرر لثلاث مرات متتالية وبمستويات متباينة من الشدة ثم نظر كل منهما في عيني الآخر وكأنه يتساءل ماهذا ماذا يحدث؟

– هل سمعتَ؟ سألتْ الفتاة.

– نعم... كيف سنرسم ذلك الصوت؟ ردّ عليها أخوها .

– لاأدري، أجابته ... مارأيك لو ذهبنا وشاهدنا مايحدث فوق الآن؟

– ماذا... تقصدين نصعد الى السطح؟ أجابها متفاجئاً.

– نعم.. ولماذا لا؟... نستطيع أن نصعد الى السطح ونرى مايجري كي نرسمه!

– لكن جدتي إذا عرفتْ ستغضب منّا.

– ها أنت قلتها لوعرفتْ...مَنْ سيخبرها أنا أم انت؟

– لالالا...أنا لن أخبرها.

ولا أنا... إذن هيا قم ودعنا نرى مايحدث فوق!

قاما وخرجا من غرفتهما وإتجها عبر الممر الى يسار الحمام وصعدا السلم فوجدا باب السطح لم يقفل بل كان مواربأ ففتحاه ودخلا السطح.

ضرب ضوء النهار الساطع عيونهما فأغمضاها أولاً، ثم بدأا يفتحانها بإندهاش كبير فبان لهما السطح واسعاً وكبيراً ولم ينتبها الى بعض الصناديق الكارتونية الفارغة الذي كان يحتل زاويته ولم

يهتما لصوت أجنحة الحمام وهي ترفرف هاربة الى سطح آخر بل صارا يتفرسان في صفحة السماء الزرقاء الصيفية التي ضمتْ سحباً قطنية تشكّلتْ على هيأة حيوانات، سمعا بها من جدتهما وهي تقصُّ حكاياها لهما.

– هذا أرنب، صاح الفتى وهو يشير الى الغيمة .

– وهذه سمكة. أنظر مثل الذي طبختها جدتي لنا قالتْ الفتاة،

– هيا لنجلس ونرى.. الله... كم الله جميل، قال الفتى.

وجلسا يتأملان الغيوم وهي تتحرك ببطء وتكوّنُ بتداخلها أشكالاً أكثر تعقيداً ممايعرفان، وهما بحالة أقرب الى النشوة كانا يتابعان مايحدث.

سكونهما جعلا حمامة تقترب من سياج السطح وتحطُّ عليه بوداعة إبتسما وحولا أنظارهما صوبها وبدأا يتفحصانها من بعيد، تفحصا ريشها الأبيض اللامع وقدميها المكللتين بالريش، ومنقارها المدبب الصغير شاهداها وهي تترك مكانها على السياج وتنزل قافزة الى أرض السطح باحثة ومنقّرة عن ما تأكله،

– الله أكبر، أصدرتْ مأذنة الشارع صوتها عالياً ففرتْ الحمامة وطارتْ بعيداً عن السطح.

– هيا لننزل ونصلي، قال الفتى.

– أنا جائعة.... دعنا نسّخن الطعام وسنصلي عند مجيء جدتي أجابته الفتاة.

نزلا الى المطبخ وسخنا طعامهما وبديا كأنهما متفقان حين حمل

كل منهما صحنه بيد وبيده الآخرى ملعقة وصعدا ببطء شديد الى الأعلى ليأكلا فوق السطح.

جلسا متكئين على الجدار ومفترشين الأرض ووضعا صحنيّ الرز والمرق إمامهما وبدأا يأكلان الطعام الذي بدا لهما مميزاً هذا اليوم،

مرة أخرى تحركتْ عيون التوأمين تتابع قطع الغيوم البيض المتحركة في السماء، بينما تباطأت حركة فمهما حتى صارا يبتلعان الطعام دون أن يمضغاه، إنتهى الغداء الذي أمتد وقته طويلاً هذا اليوم وحانتْ ساعة مجيء الجدة أحسّا بضيق قليل وهما ينزلان من السطح بصحنيهما الفارغين وملاعقهما التي علتها بقايا الطعام.

نزلا الى المطبخ وغسلا صحنيهما والملعقتين وأركناهما على الرفّ بعدها غسلا يديهما وإنتبها الى أن فتحة باب السطح كانت مفتوحة أكثر من المعتاد، فصعدا الى باب السطح وأغلقاها وعادا الى غرفتيهما، جلسا مسترخيين أولا ثم مالبثا أن إستلقيا على ظهريهما وحدقا في سقف الغرفة فبدت لهما أشكال الغيوم نفسها وهي تخترق السقف وصارا يتابعانها مبتسمين.

بقيا على تلك الحالة لحظات طوالاً ولم يسمعا صوت مفتاح جدتهما وهو يتحرك في القفل كالمعتاد ويفتح باب البيت:

– السلام عليكما قالت الجدة وهي تدخل الى غرفتهما

– عليكم السلام ردّ التوأمان وهما ينتصبان جالسين بوجل.

– إرتاحا إرتاحا، قالت الجدة وهي تشير لهما بالبقاء على سريرهما وأردفتْ قائلة تبدوان سعيدين سأبدل ثيابي وأعد الشاي وآتي.

وخرجتْ. سحب التوأمان جسديهما ونزلا من سريرهما الى الأرض بأنتظار عودة الجدة بمشاهداتها اليومية المتجددة، وحين دخلتْ حاملة لصينية الشاي وجدتْ الإبتسامة لما تزل عالقة على وجه التوأمين.

– تكلّما مافعلتما طوال اليوم؟ وجهتْ الجدة كلامها للتوأمين وهي تحاول الجلوس ببطء والتعب بادٍ على صوتها وحركة جسدها أثناء الجلوس وعادتْ لتقول من جديد:

– آه كم كان اليوم متعِباً وشاقاً... هذا العمل سيجعلني أموت قبل أواني قالتْ جملتها الأخيرة بشيء من المزاح، هيا لنرَ ما رسمته؟ توجهتْ بكلامها نحو حفيدتها وهي تصّبُ الشاي في القدح.

– لم أرسم شيئاً أجابتْ الفتاة!

– وأنتَ هيا دعني أرَ لوحتكَ أم إنكَ لم ترسم أيضاً مثل أختكَ قالتْ الجدة كلامها. هذا لحفيدها وهي تواصل صبّ الشاي في القدحين الآخرين، لكنّه أجابها وهو مطرق الرأس كأخته وبصوت خفيض:

– نعم أنا أيضاً لم أرسم.

– لم ترسما؟...تساءلتْ الجدة بإستغراب وأضافتْ.... وماذا إذاً كنتما تفعلان طوال الوقت؟... هل كنتما تلعبان طوال الوقت؟... لا أعتقد إنكما كنتما نائمين؟.... هيا حدثاني ماذا فعلتما؟.... ولم تطرقا هكذا هل حدث شيء؟

– كنّا.... همستْ الفتاة.

فأجابتها جدتها نعم تكلما ماذا؟

– خالة ام غايب إفتحي الباب..إمتزج صوت طفل مع طرق للباب.

– يوه ماذا يريد هذا.... والله لم أزل متعبة لا أقدر على النهوض استغفر الله، قالت الجدة كلامها هذا وهي تتوكأ على الارض وتقوم، ثم عدلتْ (شيلتها) وأعادتها الى رأسها بعد أن كانت منسابة على كتفيها وخرجتْ.

ما أن فتحتْ الباب حتى شخصَ لها طفل في العاشرة من عمره وأخذ يكلّمها وهو يحاول الدخول.

–أم غايب حمامتي على سطحكم منذ الصباح.... دعيني أذهب وأمسكها أرجوك.

– لا... أنتظر.. أنا سآتيك بها أنتظرهنا... لن أتأخر وإذا لم أستطع مسّكها سأجعلها تطير من على السطح، وأبعدته عن الباب وأغلقته.

– بسرعة أرجوك أنا انتظرك هنا.

– ياالله كم أنا متعبة اليوم.. لاأستطيع أن أصعد السلم، كانت الجدة تتحدث الى نفسها متذمرة وهي تصعد السلم بتأنٍ الى حيث السطح،

فتحتْ الباب بهدوء فلمحتْ الحمامة وهي تتنقل على السطح مطمئنة وبحذر شديد إقتربتْ منها وأمسكتها بكلتا يديها،

قربتْ الحمامة إليها وأخذتْ تتفحصها فوجدتْ منقارها وقد إصطبغ بلون المرق إرتبكتْ العجوز وانحتْ على الأرض وكأنها تبحث

عن شيء، فوجدتْ بقايا من حبوب الرز متناثرة وبتباعد على الأرض بينما بقيتْ بقعة من مرق الفاصوليا تحتفظ برطوبتها ولم تجفّ الى الآن.

إرتبكتْ الجدة أول الأمر ونظرتْ الى الحمامة بغضب وإعتصرتها لكنها إستعادتْ سكونها وهي ترى الحمامة تستدير برأسها نحوها وكأنها تطالبها بالرحمة، بسرعة وبغضب نزلتْ العجوز السلم وهي ممسكة بالحمامة بيدها اليسرى من جناحيها،

فتحتْ بيدها اليمنى باب البيت ورمتها بوجه الطفل وهي تصيح:

– خذ حمامتك واغرب عني لاتطرق الباب ثانية.

– مابك خالة؟ قال الطفل مستغرباً وهو يحاول الإمساك بحمامته التي رفرفتْ بجناحيها في وجهه.

لم تجبه فقط اغلقتْ الباب بشدة وتوجهتْ مسرعة الى حفيديها اللذين شعرا بذنبيهما حين دخولها،

كان شرر الغضب يتطاير من عينيها،إقتربتْ منهما وكأنها تنوي إرتكاب فعل لم ترتكبه من قبل وصاحتْ في وجهيهما بصوت لم يعرفاه من قبل:

– كنتما في السطح !

ولطمت خديها بكلتا يديها وخرجتْ من الغرفة وكأنها قد أصيبتْ بمس من الجنون، أخذتْ تدور على نفسها وتضرب وجهها ورأسها وهي تتكلم بجمل متقطعة لم يستبن التوأمان اللذان كانا يتابعان حركاتها بعيون خائفة وجسدين مرتعدين معانيها، ثم ما لبثت أن

أخذتْ تذرع الممر جيئة وذهاباً وهي تتنفس بصعوبة بعدها توقفتْ عن الحركة وجلستْ على إحدى درجات السلم وأخذتْ تنظر الى الأعلى وصدرها يعلو ويهبط بحركة تنفس سريعة ثم رويداً رويداً هدأ تنفسها فوضعتْ رأسها الذي شبكتْ يديها عليه في حضنها وأخذتْ تنتحب.

بهدوء ووجل شديد سحب التوأمان جسديهما وخرجا صوبها وجلسا قبالتها مقرفصين وبدأا يسترضيانها بتوسل ..

– جدتي نحـ.... قال الفتى.

– أششششش.. قاطعته جدته وهي ترفع في وجهه باطن كفّها... لاتكمل، ثم صرختْ في وجهيهما... أغربا عني لا اريد ان أراكما.

وهمتْ بدفعهما الى الخلف، فتراجعا في جلستهما المقرفصة وكادا يسقطان الى الخلف..... قوما عني صرختْ في وجهيهما ثانية.

فهمّا بالوقوف إلا انها وبسرعة نهضتْ من مكانها ودخلتْ الى الغرفة و حين دخولها لم ترَّ صينية الشاي، فكادتْ تترنح وتسقط متعثرة فيها، إنسكب شيء من شاي الأقداح، وبصعوبة إستطاعتْ الجدة أن تتوازن وتعتدل في وقفتها.

توجهتْ نحو فراشها الموضوع في أعلى الصندوق كعادته، وبعصبية سحبته إليها وحملته وخرجتْ به.

كان التوأمان لمّا يزالا يتابعان أفعالها بخوف فتراجعا الى الجدار حين شاهداها خارجة من الغرفة تحمل فراشها الذي رمتْ به بعصبية الى أرض الممرّ ومدتْ يدها في جيبها لتخرج منه مفتاح

الدكان وتفتحه وتدخل، ولمّا تفاجأت ان الباب الرئيس له لم يغلق جيداً عادتْ وصرختْ في وجهيهما وهي تحمل الفراش وتدخله الى هناك

– أدخلا الى الغرفة... ألا تسمعان !

دخلا الى الغرفة والحزن بادٍ على مشيتهما وجلسا القرفصاء أمام الصينية وصارا يعيدان ترتيب الأقداح فيها، ثم سحباها بهدوء واخرجاها الى المطبخ بعد أن حملتها الفتاة واثناء عودتهما أخذا بالتلصص على جدتهما فوجداها تجلس القرفصاء في فراشها ورأسها يتكىء على يدها حاسراً.

لم يتجرأا الدخول إليها بل إكتفيا بالنظر إليها من فرجة الباب الموارب، ثم قفلا راجعين الى الغرفة وجلسا متكئين على الحائط وأخذا يتكلمان قالت الفتاة:

– يبدو إن جدتي لن تسامحنا.

– نعم. يبدو ذلك. ردّ عليها أخوها بصوت حزين.

– لكننا يجب ان نصالحها.

– كيف؟

– نطلب عفوها... نقبل يدها.

– ماذا دهاك ألم تلحظها كيف أرادتْ إسقاطنا الى الأرض؟

– كانت عصبية.

– ولاتزال عصبية.

– ربما بعد قليل ستهدأ.

– ليتها تهدأ... كم انا حزين.

– ياله من يوم... كان في بدايته رائعاً ثم أنقلب الى جحيم.

– جحيم؟ ترى ما معنى هذه الكلمة؟

– كم أنت مغفل ألم تسمع جدتي تقول الجحيم هو أصل النار الذي سيعاقب الناس فيه يوم القيامة.

– بلى سمعتها ولكن لماذا ينقلب يومنا هذا الى جحيم؟

– بصراحة نحن ارتكبنا خطأً.

– كيف؟

– أنت تقتلني بتساؤلك هذا مامعنى كيف؟ ألم نخالف أمر جدتنا بصعودنا الى السطح؟

– نعم. لكننا لم نقم بذلك من اجل عصيان كلامها، نحن أردنا أن نرى مايحدث فوق!

– نحن أحمقان!

– لكن قولي لي كيف إكتشفتْ جدتي أمرنا؟

– ألم أقل لك إننا أحمقان... إنها جدتي... إنّها تعرف كلّ شيء... كلّ شيء يخصنا.... كلّ شيء في العالم .

– ها..فهمت !

– لا..أنتَ لم تفهم.

– هل صادف أن سألتَ جدتي سؤالاً ولم تجبكَ عنه؟

– لا.

– ألم نكن نتسمع للنساء اللواتي يأتين للدكان ويسألنها عن أشياء

كثر وكانت تجيبهن عليها، يا أحمق إنّها تعرف كلّ شيء.

– صرخ الفتى في وجهها صائحاً:

– واذا كانت جدتي تعرف كلّ شيء وأنتِ تعرفين ذلك فلماذا جعلتنا نصعد الى السطح؟

– لاأدري...لاأدري لا تصرخ ربما تكون نائمة الآن..... المسكينة حتى لم تحتسِ شايها.

– دعينا نصنع لها شاياً وندخله إليها؟

– لا، لا أنا أخاف ربما تضربنا!

– جدتي تضربنا؟ أنا لاأصدق.

– ليست جدتي هي التي تضربنا، بل الشيطان الذي في داخلها الآن !

– ماذا تقولين؟... في داخل جدتي شيطان! أجابها الفتى مستغرباً

– نعم شيطان.. ألم ترعينيها كيف أصبحتْا حمراوين وكلّ واحد تصبح عينيه حمراوين يكون الشيطان في داخله؟

– أنا حين أستيقظ من النوم أفرك عيني بيدي وربما تصبح حمراوين فهل يعني هذا إن الشيطان داخلني.

– يوه... ردتْ الفتاة بضجر وأردفتْ تكمل كلامها، ألم نستمع الى العلوية وهي تحدث جدتي حين جاءتْ إلينا وتخبرها إن الشيطان دخل بين إبنها وزوجه فصار الرجل عصبياً، وأخذتْ عيونه تقدح بالشرر وأخذ يضربها؟

– نعم سمعتُ ذلك.

– ماذا ردتْ عليها جدتنا أتذكر؟

– نعم... قالت أللهم ألعن الشيطان الرجيم.

– وماذا قالت ايضاً؟

– لا أتذكر.

– قالتْ إن الشيطان إذا دخل الإنسان يجعله لايرى شيئاً ويجعله يضرب كلّ من حوله!

– ها.. يعني إذا رأتنا الآن جدتنا لن تعرفنا.

– أكيد وربما تضربنا.

– وماذا سنفعل الآن؟

– أسمع سننتظر حتى تحل صلاة المغرب وحينها سنقوم ونتوضأ وهي ستأتي للصلاة معنا مثل كلَّ يوم بعدها سنسترضيها.

– نعم، سأقول لها جدتي والله لن أكرر ذلك أبداً وسأقسم لها بروح أمي وأبي.

– أمي آه..... تنهدتْ الفتاة وهي تسمع هذه الكلمة، وهمستْ بصوت حزين، لو كانت معنا الآن لخففتْ الأمر علينا آه!

– ومتى كانت معنا أم تخفف عنّا آلامنا؟.... تساعدنا في حل مشاكلنا نحن وحيدان بلا أم.. بلا أب.

–أصمت ! صرختْ بوجهه أخته...لاتدع جدتي تسمعكَ نحن لانريد لغضبها أن يزداد.

جلسا صامتين ينتظران صوت المؤذن وحين تأخر سماعه بدا عليهما القلق فسأل الفتى أخته:

– هل تعتقدين إنه مريض؟

– منْ؟، ردتْ عليه.

– المؤذن، أجابها.

– لا أعتقد.

– لماذا؟

– لأننا كلّ يوم نسمعه ولم يتغير صوته منذ سمعناه أول مرة وثانياً هو لا يمرض لأن الله يحفظه.

– ماذا تقصدين؟

– ألم تسمع جدتي حين ينادي المؤذن للصلاة تقول لبيك ياحبيب الله يعني إن الله يحب المؤذن ولن يجعله يمرض.

– ها.. هذا يعني إن الله يكرهنا!

– لماذا تقول هذا؟

– نعم. فلو كان يحبنا لما خلقنا على هذا الشكل؟

– لكننا لسنا مرضى !

– نحن أكثر من ذلك.

قال الفتى وأطرق برأسه الى الأرض بينما نفثتْ اخته تنهيدة أخرى وأغمضتْ عينيها.

– الله اكبر.

جاء الصوت قوياً وحاداً ليشق عباب السكون الذي خيم على التوأمين، ففزعا منه أولاً لكنهما سرعان ما إستردا هدوءهما وعزما على فعل ماقرراه،

إتكأا على الأرض ورفعا جسديهما وقاما وخرجا صوب الحمام يحثُّ أحدهما الآخر على الوضوء إستعداداً للصلاة وبصوت عالٍ كي يُسمِعا جدتهما التي كانت لما تزل جالسة بالوضعية نفسها،

توضـأا وعـادا بهـدوء، إقـتـربا من بـاب الدكـان الموارب، وصـارا يختلسـان النظر إليها فلم تبن منها حركة، بل بدتْ في جلستها تلك وكأنها تمثال أسود لإمرأة ليس أكثر، حزنا بشدة وتركا الممر ودخلا الغرفة.

فرشا سجادتيهما وبدأا الصلاة بصوت مرتفع، وعينا كلٍّ منهما تشخص صوب باب الغرفة المفتوح في قيامهما وسجودهما.

أكملا الصلاة دون أن يتحقق ما توقعاه، بل ظلتْ جدتهما في مكانها ولم تأتِ لأخذ سجادتها.

بالحزن الكبير الذي بدأا به الصلاة أنهياها، ورفعا سجادتيهما عن الأرض ووضعاهما على ظهر الصندوق وعادا الى الجلوس على الأرض وغطا بصمت مطبق.

مرّ الوقت عليهما ثقيلاً ولم يشعرا بالجوع حتى حين انتصف الليل وقررا أن يناما ليتخلصا من مرارة هذا اليوم الكابوسي.

ببطء شديد انسحبا نحو باب الدكان الذي وجداه موارباً كما كان، لكن جدتهما كانت قد تمددتْ على فراشها واضعة يدها تحت رأسها وقد استدارتْ بوجهها نحو الحائط بدتْ مغلفة بالحزن أكثر من كونها نائمة، فتراجعا حال رؤيتها وعادا الى سريرهما وإضطجعا على ظهريهما ناظرين الى الأعلى.

شعرا بوحشة لم يعيشاها من قبل، وبدا عالمهما منغلقاً كلّه بوجههما، فقد بُني حاجز بين عالم السعادة التي كانت تمثله لهما الجدة وبينهما، أحسا بنفسيهما صغيرين جداً، صغيرين حدّ إنهما لا يستطيعان الأكل أو المشي أو الضحك وحدهما، فلم يكن بمقدورهما سوى الإلتصاق بالسرير، والنظر الى الأعلى.

لم يعد السقف يحمل لهما الأشكال القطنية التي شاهداها في السماء، بل عاد الى حاله مشققاً بخطوط تتقاطع تارة وتلتقي تارة أخرى وتنتهي بحفر نقشتها كفّ الفقر، شعرا بضيق الغرفة عليهما وإقتراب السقف منهما حدّ الإختناق أرادا الصراخ والإستنجاد بجدتهما للخلاص لكنها كانت بعيدة، بل بعيدة جدا منزاحة تماماً عنهما فصكا أسنانهما ثم علت فورة من الآه صوب فم كل منهما فكتماها بزم شفتيهما، لكن الدموع سرعان ما إنحدرتْ على وجنتيهما وأخذا ينتحبان بصمت.

***

أخذتْ تتقلب بنومتها يميناً ويساراً ثم إستقرتْ على ظهرها فجاء إليها حفيداها صغيران في سنتهما الثانية يحبوان صوبها.

إبتسمتْ لهما ومدتْ يدها نحوهما وبحركة بطيئة مدّ لها الفتى يده اليمنى وفعلتْ اخته الشيء نفسه. وهي مبتسمة سحباها صوبهما فنهضتْ إليهما باللحظة ذاتها نظرتْ إليهما فوجدتهما وقد كبرا قليلاً، ووقفا على قدميهما وسارا، وهما يسحبانها نحو السلم الذي بدا طويلاً جداً أو بلانهاية.

صعدا بظهرهما الدرجة الأولى ويداهما لماتزل متمسكة بيد

جدتهما و في كل صعود لهما كانا يكبران بينما صارتْ الجدة ترى جسدها يتقلص وينكمش ويغدو مكوراً، صعدا وصعدا وصعدا، وهما يسحبانها وحين وصلا الى منتصف السلم إستدارتْ العجوز الى الوراء فلم تر سوى هوة سوداء عميقة.

فقد تلاشتْ الأرض عن الرؤية، حينها أحستْ بحفيديها وقد أفلتاها من يديهما وهما يضحكان.

أخذتْ تسقط من الأعلى صوب الهوة بسرعة كبيرة وهي تصرخ، لكن صراخها لم يكن مسموعاً، إزدادتْ سرعة سقوطها وإزداد صراخها غير المسموع وفجأة إرتطم جسدها بالأرض وتأوهتْ.

ففتحتْ عينيها منهكة، ووجدتْ نفسها نائمة في فراشها الذي كان رطباً نتيجة العرق الذي نضح من جسدها أثناء الرؤيا.

إعتدلتْ في جلستها ووضعتْ شيلتها على رأسها وإتكأتْ على الحائط القريب منها وخرجتْ عابرة الممر الى الحمام، وقبل ان تدلف إليه إلتفتتْ صوب باب غرفة التوأمين فوجدته مفتوحاً.

همتْ بالعودة إليه وإغلاقه لكنّها سرعان ما تراجعتْ ودخلتْ الحمام تاركة باب الغرفة مفتوحاً ومصباحها مضاءً.

كانت الشمس على وشك الشروق حين أنهتْ العجوز صلاة الصبح في دكانها حيث تنام وبلا سجادة، ثم خرجتْ من جديد الى المطبخ، وأعدتْ لحفيديها طعام إفطارهما المعتاد وسلقتْ بعض البطاطا كطعام للغداء ووضعتْ الجميع الى جانب أرغفة الخبز التي لم تؤكل أمس، بينما إكتفتْ هي بشرب قدح من الشاي وخرجتْ،

كان الضحى قد حلّ حين فتحتْ الفتاة عينيها وهمتْ بالنهوض، فشعر أخوها بحركتها ففتح عينيه،وإستجاب لها وتحركا نازلين عن سريرهما.

كان الحزن لمّا يزل يسيطر عليهما لكن الفتاة سبقتْ أخاها فسألته وهما يخرجان متجهين صوب الحمام بعد أن شاهدا فِراش جدتهما مكوراً على أرض الدكان المفتوح بابه الداخلي.

– هل تظنّها سامحتنا؟

– لادري ليتها تفعل ذلك.

– هيا أريد أن أتبول. قالت الأنثى.

– حتى أنا. ردَّ عليها أخوها.

دخلا الى الحمام وأنزلا بجامتهما ولباسيهما الداخليين الى تحت ركبتيهما، وجلسا على المقعدين المتجاورين مقرفصين، أدارتْ الفتاة وجهها الى الحائط القريب منها بينما طأطأ الفتى رأسه الى الأرض وبدأا يستفرغان مثانتهما.

– صباح الخير علوية.

– صباح النور أم غايب، أرجو أن تستعدي اليوم من اجل صديقتي التي ستحضر بعد قليل أريدك أن تعتني بتدليكها، إنّها صديقتي الغالية .

– حاضر علوية، هذا أمر سهل.

– إذاً أرجو أن تحضري لي من العجوز التي في الباب كيساً من (النورة) وكيس حمام جديد، وقطعة صابون رقي، وكيساً من

الوسمي، وكم عود بخور... بسرعة رجاء.

– صار علوية، قالتْ أم غايب ذلك وخرجتْ الى باب الحمام حيث العجوز التي تجلس هناك وابتاعتْ منها ما مطلوب ودخلتْ لتمارس عملها اليومي المعتاد.

أما صاحبة الحمام فقد بالغتْ كثيراً في الإستعداد لقدوم الضيفة المنتظرة بإشعالها عيدان البخور في كلّ ركن من مداخل الحمام وإضاءة كلّ مصابيحه. لم يدم إنتظارها طويلاً حتى دخلتْ إحدى النساء المتشحات بالسواد الى الغرفة، ورفعتْ بوشيتها فكشفتْ عن وجهها مسلمّة.

استقبلتها صاحبة المحل وعانقتها وتبادلتا القبل من الخدين ثم أجلستها الى جانبها على الأريكة ونادتْ على أم غايب لتأتي لهما بالشاي، شربتاه وتبادلتا حديثا لم ينتهِ حتى حين خرجتْ المرأة الى الحمام وجلستْ على الدكة وأخذتْ أم غايب تدلكها بكيس الحمام، فأن حديثهما هذا لم ينقطع فقد جلستْ صاحبة الحمام هي الأخرى الى جانبها وقامتْ بإضافة قليل من الماء الفاتر على مسحوق الوسمي الذي وضعته في طاسة من الألمنيوم فتحول لونه الأخضر الغامق الى لون اسود ثم وضعته على شعر صديقتها الأشيب ثم عقصته الى الأعلى.

– أم غايب أين النورة؟ سألتْ صاحبة الحمام.

– إنّها في الغرفة علوية هل آتي بها؟ أجابتها ام غايب.

– لا..لا أكملي عملك أنا سأحضرها، ردتْ صاحبة الحمام عليها وقامتْ وأحضرتها من الغرفة الى الدكة حيث كانت تجلس صديقتها

مستسلمة بإنتشاء للطريقة التي كانت تدلك جسدها بها أم غايب.

فتحتْ كيس النورة ووضعتْ مسحوقها في إناء بلاستيكي وأضافتْ لها قليلاً من الماء الفاتر وتركتها حتى فرغتْ أم غايب من تدليك صديقتها وصب الماء على جسدها الذي بدا ورد ياً من أثر ذلك،

شكرتْ أم غايب وطلبتْ منها المغادرة لتقوم هي بوضع عجينة النورة على شعر أبطي صديقتها وعانتها وتركتها تجفُّ وتواصلتا بحديثهما:

– وماذا ستفعلين الآن وقد مرتْ سنة كاملة وأنتِ وحدكِ؟

– لا، لست وحدي فهم معي.

– أنتِ تجعلينني أصاب بالجنون... تعرفين.. أنا أخاف أن آتي إلى زيارتكِ... أخاف من بيتكم... ألا تخافين؟

– أخاف؟.. ممن؟..من أمي وأبي وعمتي؟! طبعاً لا..

– لكنهم موتى... أنت تعيشين مع جثث موتى.

– أرجوكِ إنها وصية العائلة أن يدفنوا في بيتهم.

– وهل من المفروض أن تدفني حيّة بينهم؟

– لم يتبق لي الكثير من العمر...

– أنت لما تتعدي الخمسين بعد!

– حتى أمي لم تتعدها.... ماتتْ وهي لم تصل حتى أعتابها.

– وهل يجب أن تموتي بعمرها؟.. وفاروق سمعت إنه يريد العودة إليكِ ألم يتصل؟

– فاروق منافق.. طلقني لأنني لا أنجب.. وهو الآن يريد العودة

لأن أبي مات.. هو يريد المال الذي أورثه لي أبي ليس أكثر.

– لكنه أبن عمك؟

– ولكنه لم يرع ذمة عمه... هل تدرين. هو حتى لم يزره في مرضه الذي مات فيه!

– لاحول ولاقوة إلا بالله... صحيح إن هناك فتاة معك في البيت؟

– نعم... فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها تعمل عندي في النهار وعند حلول المساء يأتي أبوها ويعود بها الى بيتهم... تخاف أن تبيت معي تصوري!

– معها حق! أنا أتعجب كيف تقضين الليل معهم... أخبريني هل تسمعين أصواتهم.

– أنت مجنونة؟.. إنهم أهلي.. أحدثهم ويحدثونني صحيح إنني لا أسمعهم لكنني أحس بكلامهم بقلبي.. هيا قومي بدأتُ أشعر بحكة من نورتك هذه.. هيا قومي وأزيليها.

– حاضر، ردتْ عليها صاحبة الحمام وجلبتْ منشفة صغيرة وأخذت تزيل بها النورة التي تكلستْ على الشعر.

ثم صبتْ الماء الفاتر على جسدها كلّه، وغسلت شعرها بصابون الرقي فأزالتْ الوسمى عنه ليصطبغ باللون الأسود البراق،

ثم قامتْ بتنشيفها ولفّها بمنشف أبيض كبير وإدخالها الى غرفتها وقامتْ تساعدها في إرتداء ملابس ملونة،

بعد أن جمعتْ ملابسها السود في كيس نايلون ووضعتها خارج الغرفة إستعداداً لرميها.

– فكري بالزواج، قالت صديقتها صاحية التي جلستْ على الأريكة تقشر البرتقال الذي قدمته لها.

– أنتِ تمزحين.... لم أعد أفكر بغير النوم الى جانبهم، لقد أعددتُ لي لحداً الى جانب لحودهم.

– يوه... أرجوكِ أتركي هذا الحديث قولي لي متى تذهبين لزيارة الولي؟

– غداً صباحاً.

– سأرافقكِ إليه.

– مرّي عليّ إذاً.

– لالا أنتِ تعالي الى هنا وسنذهب ونعود عند الضحى.

– صار، قالتْ ذلك وارتدتْ عباءتها وبوشيتها وخرجتْ بعد أن نقدتْ صاحبة الحمام مبلغاً كبيراً رفضته الأخيرة في بداية الأمر لكن إلحاحها الزائد جعل صاحبة الحمام تأخذه وهي سعيدة به.

– أم غايب... نادتْ صاحبة الحمام وهي تعود الى الغرفة بعد توديع صديقتها.

– نعم علوية !

– خذي.... هذا لك حاولي أن تنظفي الحمام بسرعة فقد تعبتُ اليوم سأغلق الحمام بعد قليل... ولاتنسي أن تأخذي معكِ كيس الملابس هذا، ورفعته بيدها من على الأرض نحوها.

نظرتْ أم غايب الى الكيس بإمتعاض وقالت متذمرة:

– لا علوية لم ألبس طوال سنوات عمري أسمال الآخرين...

وإعلمي إنني لم آخذ منك النقود إلا لأنني أديتُ مقابلها عملاً.

أكملتْ جملتها وهي تنظر في عين صاحبة الحمام التي خجلتْ من كلامها وأطرقتْ الى الأرض وهي ترجع الكيس الى مكانه وتدخل.

شعرتْ العجوز بالإهانة فأخذتْ تعبّر عن سخطها بسكب دلاء الماء على الدكة واحداً تلو الآخر وبسرعة، فيسيل معه الشعر العالق ممتزجاً ببقايا رغوة الصابون وألوان الحناء والوسمي ليكّون الجميع مزيجاً رمادياً غير متجانس ناظرة بتقزز إليه وهو ينحدر الى البالوعات.

رويداً رويداً خلا المكان من المستحمات، وأُطفأت الأضوية وانغلق باب الحمام وغادرتْ العجوز متجهة الى بيتها بعد أن إبتاعتْ لصغيريها من المطعم المقابل للحمام دجاجة مشوية كطعام فاخر لم يتذوقاه من زمن بعيد.

وفي طريق عودتها الذي كانت تسير به يثقلها الهم ويغلفها الضيق، شاهدتْ العلوية تنعطف بنفس الطريق فاستوقفتها وتبادلا التحايا فبدا عليها إنها تريد لقاء قريبتها صاحبة الحمام لأمر عائلي.

سارتا معاً في الأزقة الضيقة التي يلّفها غبار الصيف وحرارته وتتطاير بقايا نفاياتها الورقية وأكياس النايلون الفارغة ما بين أقدام المارة وهما تتحدثان:

– لقد عادتْ الى البيت، قالتْ أم غايب رداً على سؤال العلوية لها عن قريبتها.

– مع الأسف كنت أريدها في أمر مهم.

– خيراً إن شاء الله !

– كنتُ أريد إصطحابها الى بيت كنتي كي أعيدها الى البيت انتِ تعلمين القصة.

– أجل... كنتُ أعتقد إنكم أعدتموها.

– لا... ابني عنيد والمسكينة لم تذنب.

– أعلم ! قالتْ أم غايب وتحسرتْ، كلّنا مساكين!

– تصوري.... كم كنتُ في غاية الخجل وهي تحكي لأمها التي زارتنا في صبيحة وفاة الصغير.... كيف ضربها زوجها لأنها رفضتْ أن تنام معه... الأحمق دائماً يسبب لي الخجل مع الآخرين... حاولتُ أن أقنعها بالبقاء فرفضتْ وإصطحبتها أمها الى بيتهم.

– الله يهديه! ردتْ أم غايب.

– لكن أخبريني لِمَ خرجتْ العلوية اليوم مبكرة... ليس كعادتها؟

– لقد أجهدتْ نفسها مع إحدى صديقاتها.

– ها... وكيف فعلتْ ذلك تلك السمينة؟

إبتسمتْ أم غايب بفتور قائلة:

– اشترتْ البخور وكنسنا الغرفة ورششنا ماء الورد وغسلنا الدكات أكثر من مرة وأعدتْ الشاي وأحضرتْ البرتقال.

– ولِمَ كلّ هذا؟

تشجعتْ أم غايب وأزاحتْ الضيق عنها وبدأت بالكلام.

– ألم أقل لك إن صديقتها قد جاءت اليوم... جاءتْ لترمي عنها

ملابسها السود بعد أن مرّ عام على وفاة والدها... تبدو غنية !

– العلوية كلّ صديقاتها من الغنيات.

– المرأة لم تتجاوزالخمسين.. لكنها بدتْ من اللواتي لم ترين الشمس في حياتها .

– كيف ذلك؟

– كان وجهها وجسدها شاحباً.... وأعتقد إنها لم ترزق بطفل... لأن بطنها كانت مضمرة، ولحمها مفتول، سمعتهما تتحدثان عن عائلتها الراحلة وكيف إنها لماتزل تعيش مع لحودهم في البيت نفسه!

– ها... عرفتها، ردتْ العلوية، وأكملتْ يقال إن عمتها حين بدأت الحرب سحبتْ كلّ أموالها من البنك وصنعتْ منها فراشاً وإفترشتْ به سريرها، وفقط حين أخذتْ تحتضر أخبرتْ أخيها بذلك.... فأنتظر الأخير إنتهاء مراسيم الفاتحة وأعاد النقود الى المصرف.

– معقولة !

– نعم.... معقولة أخوها أصلاً كان مرابياً.....في إحدى المرات حدثتني جارتنا إن زوجها قد ذهب لإستدانة مبلغ منهم، وإنتظر لمدة خمس ساعات كي يكمل السيد صلاته، وحين خرج له أخبره إنه سيعطيه المبلغ مقابل أن يعيده له بعد عشرة أيام بضعفين.

– لاحول ولاقوة إلا بالله.. يعني هو سيد أيضاً؟

– نعم مع الأسف !.. وأبنته الآن تعيش مع لحود أبيها وأمها وعمتها.

– علوية قبل أن أنسى.. أنا والصغيران متخاصمان !

– ماذا؟.... وقفتْ العلوية أمام وجه أم غايب بعد أن سحبتها من يدها وإستوقفتها.

– نعم. قالت العجوزمتضايقة لقد عصيا أوامري... تصوري لقد صعدا الى السطح

فزعتْ العلوية وتلفتتْ يمنة ويسرة ثم قربتْ وجهها من صديقتها هامسة:

– وهل رآهما أحد؟

– لا أعتقد، ردتْ عليها أم غايب بصوت حزين فلو رآهما احد لإنقلب الشارع ووجدتِ كلّ شخص فيه يقف في الباب طالباً الفرجة إنت أعلم بأهل شارعنا !

– الحمد لله تنفستْ العلوية بعمق واضعة يدها فوق صدرها ومهدئة من روعها ثم قالتْ لاعليك أنا سأسوي المسألة.... ولكن يجب أن تعلمي إنّهما يعيشان في مكان اشبه بالسجن !

– سجن؟! إنتفضتْ أم غايب ثائرة ولكن ماذا لو شاهدهما شخص ما هل تدركين عظمة الأمر وجلله؟

– نعم أدرك..... ولكن أهدئي أولاً وفكري كيف تصنعين لهما حياة خاصة بهما!

– كيف؟!

– تسألينني وأنتِ العاقلة؟!

– هيا إقتربنا من البيت سأفتح الباب بهدوء ربما هما الآن نائمان!

تقدمتْ بهدوء من الباب، ووضعتْ المفتاح في القفل،وأدارته الى

اليمين ثم دفعته بهدوء بعد أن تركتْ المفتاح في قفله فإنفرج قليلاً، فإستدارتْ نحو العلوية وهمستْ لها.

– هيا تفضلي!

– جدتي، صرخ التوأمان وركضا صوب الباب وعانقا المرأة الداخلة وهما يبكيان.

– تعالا... أجابتهما جدتهما وضمتهما إليها بذراعين مفتوحتين على وسعهما وبدأا يبكيان، بينما شعرتْ العلوية وهما يفلتان من حضنها ويعودان لحضن جدتهما بشيء من الأسى عليهما، لم تر فيهما غير صغيرين يبكيان من الخوف.

دخل الجميع الى الغرفة وأجلستهما الجدة الى قربها بعد أن كفّكفّتْ دموعهما بيديها وكم حاولا أن يسندا رأسيهما على كتفها لكن ذلك لم يكن ممكناً.

– هيا أم غايب لقد جعنا، قالت العلوية وهي تشير الى الدجاجة المشوية التي نستها أم غايب في كيسها وهي تحدق في حفيديها بنظرات عتاب لاتنتهي.

– يوه... صحيح لقد تذكرت سآتي بالصينية والخبز.

– هل تغديتما؟ سألتْ العلوية التوأمين حين غادرتْ جدتهما الى المطبخ.

– لا، ردتْ الفتاة.

– جدتي كانت غاضبة منّا وفقدنا شهيتنا.

– شربنا شاياً في الصباح فقط حتى بلا خبز. قال الفتى وهو يبتلع ريقه.

– لقد جاءتْ لكما جدتكما بطعام طيب قالت العلوية.

– اذا أكلتْ معنا جدتي سنأكل قال الذكربشيء من الحماس.

– طبعاً ستأكل.. كلّنا سنأكل! اتركا هذا الأمر عليّ.. ردتْ العلوية.

بعد قليل دخلتْ الجدة تحمل صينية بها طبق عليه دجاجة مشوية جيداً والى جانبه طبق صغير من المخلل وقليل من البصل الأخضر وأقراص من الخبز الحار وقرص آخر بارد.

قامتْ العلوية إليها وتناولتْ منها الصينية ووضعتها على الأرض بينما عادتْ الجدة مرة أخرى الى المطبخ لتعود بعدها حاملة آنية الماء وقدحين،ووضعتهما على الأرض وبقيتْ واقفة.

– هيا أجلسي خاطبتْ العلوية أم غايب وهي ترفع رأسها ناظرة إليها.

– لستُ جائعة أجابتْ الجدة وحاولتْ الإنسحاب الى الوراء والخروج من الغرفة

شعرالتوأمان بالخيبة وحاولا الإنسحاب زحفاً الى الوراء والأبتعاد في جلستهما عن الصينية.

رأتْ العلوية ذلك فخاطبتها مرة أخرى بشيء من التوسل.

– إنّهما لم يفطرا حتى.... لقد شربا شاياً فقط...إنهما جائعان.

ترددتْ العجوز أولاً في الجلوس وبدا ذلك على حركاتها بعدها جلستْ قبالتهما فدبَّ النشاط في التوأمين وإقتربا زحفاً من الصينية وكذلك فعلتْ العلوية ورويداً رويداً لامستْ ركبة الفتى المتربعة ركبة جدته فشعربالأمان وقد أمتزج مع لذة الطعام الذي لم يتذوقه من زمن بعيد.

– كنّا خائفين، وجه كلامه الى جدته وهو يمضغ لقمته.

– أنتَ من كان خائفاً، ردتْ عليه أخته بسرعة وبصوتٍ عالٍ بعد أن وضعت لقمتها على الصينية وهي تنظر في عينيه.

– حتى أنتِ كنتِ خائفة، كررَّ الصبي قوله بوجه أخته بغضب وقد توقف عن مضغ طعامه.

– ماالذي أخافكما؟ سألتهما العلوية وهي تمدُّ يدها الى طبق المخلل.

– نحن لم نتوقع مجيء جدتنا بهذا الوقت....تعودنا عودتها مساءً لذا إعتقدنا إن لصاً ربما يحاول الدخول الى البيت قال الصبي.

– وهل يدخل اللصوص من الباب وظهراً الى البيوت؟ سألته العلوية.

– الجميع يعلم إن البيت فارغ ولذا قديدخل من الباب إذا لم يشاهده أحد أجابها الصبي.

– وماذا فعلتما؟ سألته العلوية.

– إقترحتْ عليّ أختي أن نقوم الى الباب ونقف امامه وأكيد إذا شاهدنا اللص سيهرب من منظرنا!

تألمتْ الجدة من كلام حفيدها لكنها حاولتْ ان تغير الموضوع بقولها:

– ألا تعتقدون ان الدجاجة تحتاج الى ملح؟ وهمتْ بالوقوف متوكئة على الارض من أجل جلب المملحة من المطبخ.

– لا،لا، بل هي لذيذة هكذا،أجابتها العلوية وهي تضع يدها على ركبتها مانعة إياها من النهوض وأردفتْ ألا تخافين الضغط؟

– ما الضغط جدتي؟سألتْ الأنثى.

– مرضٌ كفانا الله شره،قالتْ العلوية وأكملتْ... هيا لنترك الموضوع ونأكل هذه الدجاجة اللذيذة قالتْ ذلك بصوت يشبه صوت وحش يهجم على فريسته ومدتْ أصابعها الى الدجاجة وكأنها تحاول إفتراسها.

ضحك التوأمان بشدة وهما يشاهدان ماقامتْ به العلوية بينما إكتفتْ الجدة بالإبتسام، وحينما فترتْ نوبة الضحك وضع الصبي لقمة صغيرة في فمه وأغمض عينيه وأخذ يمضغها برفق، وحين شاهدت الجدة ذلك صنعتْ له واحدة أخرى أكبر بقليل وألقمتها إياه فجفل أول الأمروهو يحسُّ بإقتراب اللقمة من شفتيه المطبقتين وفتح عينيه ولكنه سرعان ما إستسلم للذة من جديد حين رأى جدته هي التي تطعمه.

فتح لها فمه فوضعتْ الجدة تلك اللقمة فيه،فأغلقه على شكل إبتسامة،وغاب بشبه إغماضة وهو يمضغها بهدوء.

أصابتْ الغيرة أخته وهي ترى جدتها تطعمه، فبدتْ تتململ في جلستها وأدارتْ وجهها الى الجانب الآخر تلافياً لمشاهدة مايحدث،

غير إن جدتها لم تكن منتبهة الى ذلك على العكس من العلوية التي عالجتْ الأمر بأن صنعتْ لها لقمة صغيرة وقربتها من فم الفتاة ففتحتْ فمها على إستحياء وإبتلعتها وأخذتْ تبتسم للعلوية ثم لجدتها التي سرعان ما تنبهتْ وصنعتْ لها أيضاً لقمة مماثلة للقمة أخيها ووضعتها في فمها وهي تضحك في سرّها من غيرة التوأمين.

إنتهى وقت الغداء الذي بدا مدهشاً للجميع، وإستأذنتْ أم غايب

ضيفتها وذهبتْ لإداء صلاة الظهر التي تعذر عليها اقامتها في مكان عملها اليوم فإنتهزتْ العلوية ذلك وبدأتْ تحدث التوأمين عن مقدار حب جدتهما لهما وكيف قوضتْ حياتها كي يكونا هما وحدهما كلّ تلك الحياة،

فقد إنسلختْ تلك العجوز من أخواتها وقريباتها وبقية أهلها في سبيلهما،

في سبيل بقائهما محصنين عن الآخرين.

أخبرتهما إن كلّ شيء هنا قد هيأته أمرأة لهما، أمراة واحدة إستطاعتْ أن تصنع عالماً مصغراً لثلاثة أشخاص، وهذا ليس بالأمر الهين.

أخبرتهما كيف إن جدتهما أمضتْ شهراً كاملاً تخرج كلّ يوم صباحاً تبحثُ عن عامل بناء أخرس يقوم ببناء حمام مزدوج لكما.

وكيف إنّها أصرتْ على أن يكون ذلك العامل أخرس خشية أن يراكما فيخبر الآخرين.

وكيف كنتُ أنا أصطنع لي الحجة تلو الأخرى من أجل البقاء معكما حتى تعود، وكيف علّمتكما المشي بالإستناد عليها وحدها،

فكثيراً ما كنتُ أراها حين آتي الى هنا، وهي تجعلكما تقفان على الأرض وتمدُّ لكما يديها وتسحبكما رويداً رويداً وتجعلكما تخطوان الخطوة تلو الأخرى،

وكانت إذا مرضتْ لاتذهب الى المستشفى بل تكتفي بتناول ما لديها من اعشاب هل فهمتما مقدار حبها لكما؟!أنتما كلَّ حياتها.

كانت تتكلم بهدوء خشية أن تسمعها الجدة، بينما هما يستمعان لها مطأطئين رأسيهما الى الأرض وقد عرفا مدى الخطأ الذي إرتكباه بحق جدتهما حين عصيّا أوامرها وصعدا الى السطح.

– قولي لها ان تسامحنا علوية ترجتها الفتاة

– لمن أقول..... لجدتكما؟ تساءلتْ بتعجب

– نعم أجاب الذكر

– أنتما إذن لم تفهما الى الآن إن الأب والام لن يغضبا من أولادهما وحتى لو غضبا فلن يطول ذلك وأنتما أبناء جدتكما إذ لا أب ولا أم لكما غيرها.

– يعني هي سامحتنا؟ سأل الذكر

– نعم. لكن عليكما ان تعداها أن لاتكررا معصية أوامرها لأن التمسك بتلك الأوامر لمصلحتكما... لسلامتكما !

بفرح كبير إتجهتْ عيون التوأمين صوب وجه جدتهما الذي بدا متلألئاً براقاً وهي تحمل صينية الشاي لأربعة أكواب تلاقفتها الإيدي، وبدأت الشفاه بإرتشافها مع ذكرى أخرى جميلة من ذكريات المرأتين التي كانت تحلو لهما قصّها أمام مرأى ومسمع التوأمين.

لم ينته يوم التوأمين بمغادرة العلوية عند المغرب بل أمتد طويلاً حتى منتصف الليل.

كان يوماً مميزاً حمل معه مشاعر شتى من الحزن والفرح والبكاء والهدوء والسكينة في آن وبمجرد أن وضعا رأسيهما على وسادتيهما ألح على الفتى سؤال كان محبوساً بداخله طوال الوقت،

– جدتي ما معنى عصيان؟

رفعتْ الجدة رأسها عن الوسادة وإدارتْ وجهها له لتقول

– مازلتَ مستيقظاً؟

– نعم جدتي ردَّ الفتى.

وأجابتْ الفتاة بسرعة:

– وأنا أيضاً.

– ومتى تنامان..... إنتصف الليل؟ قالتْ الجدة.

– ها جدتي ما معنى عصيان؟ كرر الفتى.

وضعتْ الجدة رأسها بهدوء على وسادتها وتنهدتْ وهي تقول:

– العصيان.... ماقمتمابه.... العصيان عكس الطاعة، فقد صعدتما الى السطح وعصيتما أوامري، قالت ذلك وأغمضتْ عينيها وكأنها تريد الهروب مما حدث!

– لماذا تسأل الآن أيها المغفل، همستْ الفتاة بأذن أخيها.

– جدتي نحن لم نعصكِ.

فتحتْ الجدة عينيها بإستغراب وتساءلتْ كيف؟

– نعم. الأشياء هي التي جعلتنا نفعل ذلك.

بسرعة إعتدلتْ الجدة في فراشها وسألته:

– أشياء، أي أشياء؟

– جدتي نحن كنّا نرسم حينما سمعنا صوتاً تكرر ثلاث مرات... يسقط على السقف فصعدنا نريد أن نعرفه.. وكانت ثلاث قطع من الحجر... وحينما أردنا النزول جاءتْ الحمامة التي تشبهك وجعلتنا

نبقى نراقبها.

– تشبهني؟ تساءلتْ الجدة وهي تبتسم.

– نعم.. أختي دائما تقول انك تشبهين الحمامة، نعم هي تشبهكِ أنا رأيتها حلوة مثلك جدتي.

كادتْ الدموع تترقرق في عيون الجدة وهي تسمع كلام الفتى لكنها إستدركتْ قائلة:

– ها.. وبعد؟

– بعدها جاءتْ أشياء بيض في الأعالي.... أشياء تشبه القطن الذي لففتِ به قدمي حين سقطتُ على الأرض قبل أيام.... كانت كبيرة....صارتْ تشبه السمكة التي طبختها لنا لكنها بيضاء ثم تحولتْ الى أرنب، أرنب مثل الذي قلت لنا إنّه سريع، الأرنب الذي كان مرسوماً على البالون الذي في دكانكِ..... جدتي نحن لم نرد العصيان كنّا نشاهد الأشياء فقط.

– لكن لو رآكما شخص ما لكنّا الآن فرجة لأهل الشارع، ردّتْ العجوزعليه بشيء من الغضب.

– لكن أحداً لم يرنا أجاب الفتى بصوت متوسل كان يريد من ورائه إستدرار عطف جدته كي تنسى الموضوع !

– الحمد لله قالتْ الجدة.

– جدتي.... ماهذه الأشياء التي فوق؟ سأل الفتى من جديد

– هذه غيوم ألم أحكِ لكما عنها؟

– لا. أجاب التوأمان معاً.

– ها.... هي غيوم بيض تأتي بالمطر في الشتاء حتى تنمو النباتات وهي في السماء.

– السماء؟ ردّ الفتى مستغرباً بينما إكتفتْ الفتاة بالنظر الى وجه أخيها.

– نعم..السماء، أجابتْ الجدة وأردفت تقول أسمعا الذي نعيش عليها هذه وأشارتْ بإصبعها الى المكان الذي تجلس عليه تسمى أرض.. وهذه التي فوق تسمى سماء وأشارتْ الى السقف.

– لكنكِ جدتي قلتِ إن هذا سقف! قالتْ الفتاة بإستغراب.

– نعم حبيبتي، أقصد ما فوق السقف يسمى سماء... الذي شاهدتما بها الغيوم تسمى سماء هل فهمتما؟

– نعم جدتي ردَّ الفتى.

– هيا إذاً لننم.... سيظهر الصبح قريباً قالت الجدة لهما وهي تعود لتتمدد على فراشها وتضع رأسها على وسادتها بهدوء وتحاول إغماض عينيها.

– جدتي،صاح الفتى.

– نعم، أجابته الجدة.

– هل تعلمين بماذا تشبّهنا أختي؟

– بماذا؟

– تشبّهنا بالحشرة الصغيرة التي رأينا بيتها الخيطي بالدكان... الحشرة التي لها أرجل عديدة... العنكبوت هل تذكرتها؟... تقول أنا وأنتّ نشبه العنكبوت.

– نم صغيري.. أرجوك سيظهر الصبح قريباً وأنا لديَّ عمل هل نسيتَ؟!

قالت العجوز ذلك وهي تبتلع دموعاً مخنوقة لم تستطع أن تطلقها أمام صغيرين لم يستطيعا التفريق بين السقف والسماء.

صغيرين يشبّهانها بالحمامة ويريان نفسيهما عنكبوتاً.

أوشك الليل على الإنتهاء ولما يزل حنقها على الحياة يتواصل على شكلّ دموع تنسكب من على وجنتيها دونما توقف.

وبمجرد أن داعب الوسن جفنيها حتى جاءها صوت العلوية وأغرقها في دوامته قائلاً وبتكرار (إصنعي لهما حياة !)

كعادتها صباحاً أتمتْ ما كانتْ تفعله كلّ يوم في البيت وخرجتْ لعملها المعتاد،

لم تسر في الطريق المؤدي مباشرة الى الحمام كما كلَّ يوم، بل إنعطفتْ الى حيث السوق الذي لم يكن قد أكتظَّ بالناس بعد.

فقط كانت بائعاتْ الحليب والقيمر يفترشنَّ حافات أرصفته ويتحدثنَّ في أمورحياتية شتى،بينما إبتعدتْ عنهن بقليل واحدة كانت تبيع البيض.

إنتبهتْ لها فوجدتْ إن معها سلة من الخوص بها دجاجة سوداء على بيض إبتاعتها منها بعد أن سألتها عن اليوم الذي وضعتْ فيه البيض تحت الدجاجة، فأجابتها البائعة إنها فعلت ذلك أمس ظهراً.

حملتْ الدجاجة الراقدة بسلتها وإتجهتْ بها الى مكان عملها، ووضعتها في غرفتها حتى حان وقت مغادرتها الحمام فعادتْ بها

الى البيت حيث التوأمان اللذان إندهشا لمرآها وهما اللذان لم يريا دجاجة حية قبل هذا اليوم.

إقتربا منها وإحدودبا فوقها وبدأا يتحسسان ريشها الأسود الدافئ بأيديهما،

مررا أصابعهما على رأسها فبدأتْ الدجاجة تتململ رافضة حركاتهما تلك،

الأمر الذي جعل العجوز تخبرهما بأن الدجاجة مثلنا تحسُّ لذا فهي تضجر إذا ضايقها إنسان،

رفع التوأمان أصابعهما عنها وجلسا يرقبانها عن كثب وأسئلة عديدة تبادرتْ الى ذهنيهما أجابتْ عنها جدتهما ابتدأها الفتى بقوله:

– جدتي هل الدجاجة تمشي؟

– نعم.. ولكنها الآن ترقد على البيض لذا فإن لم يضايقها أحد ستبقى هكذا حتى يفقس البيض.

– وكم ستبقى راقدة على بيضها، سألتْ الفتاة.

– واحد وعشرون يوما، ردتْ الجدة.

– وهل ستأكل، أردفتْ الفتاة قائلة.

– الآن.. هي نادراً ما تأكل لكننا سنطعمها إذا جاعتْ أكيد.

– وما معنى فراخ جدتي، سأل الذكر؟

– الفراخ هم أبناء الدجاجة التي تفقس من البيض.

– وما لونها جدتي، سأل الفتى.

– لا أدري ربما يكون لونها أصفر أو أسود... ستكون جميلة مثلكما.

– لالا.

صرخ الإثنان معاً وإنتفضا رافضين أن يريا كائناً آخر مثلهما، يشبههما.

إنتبهتْ العجوز فإنسحبتْ الى المطبخ بهدوء، لكنّها سرعان ماعادتْ راكضة الى الغرفة حال سماعها صوت الدجاجة وهي تصيح، عادتْ لترى حفيدها وقد مدّ يده الى الدجاجة وصار يحرك أصابعه تحت جناحها وهو يضحك بصوت عالٍ وأخته كذلك.

دخلتْ الجدة وهي تصيح:

– ماذا تفعلان؟

– نحن نجعل الدجاجة تضحك ردّ الفتى.

– لا لا أتركاها، الدجاجة لاتضحك قالتْ الجدة ذلك وإبتسامة خفيفة مرتسمة على شفتيها، ثم أردفتْ إذا شئتما إن ترسماها فأفعلا حتى أكمل إعداد طعام العشاء لكما، إمتثل لها التوأمان وأحضرا بهدوء دفتري الرسم وعلبة الألوان وجلسا على الأرض ممددين أقدامهما قبالة الدجاجة التي أغمضتْ جفنيها وحركتْ جسدها قليلاً وكأنها تتحسس البيض الذي تحتها ثم دستْ منقارها في ريش جناحها وإستسلمتْ للرقاد تاركة اقلام التوأمين تحاكي جسدها برسم أكثر من صورة له.

مثل بقية الأيام كانت العجوز تجهد نفسها بالعمل داخل الحمام

متنقلة بين مكان وآخر، تدلك النساء حيناً وتتأكد من نظافة الحمام حيناً آخر، تبتسم في وجوه المبتسمات وتخفف من حزن التعيسات اللواتي جئن للحمام نشداناً لنسيان أحزانهن ولو لساعات،

تدعو لمن تسألها دعاءً، وتشارك المبتهجات بغسل عروس وتحضيرها للزفاف دون أن تعطي نفسها فرصة للتوقف سوى لإقامة صلاة الظهر في غرفتها وتناول طعام غداء بسيط تجلبه معها من البيت كان سرعان ماينتهي بمجرد سماع صوت صاحبة الحمام وهي تنادي عليها، أو صوت يصدرمن إحدى النساء المستحمات يستدعيها للحضور.

الإنهماك في عمل لايناسب سنها لم يجعلها تتبرم منه، بل تستمر في إدائه الى حين إنصرافها الى البيت متعبة، مقابل مبلغٍ بسيطٍ من المال كانت تنفق بعضه وتوفر منه القليل لما قد يحدث.

كلّ من يرى حركتها داخل الحمام بثوبها الأسود المنزوع الأكمام وفوطتها التي تعتصب بها على رأسها فتبين من تحتها جدائل رفيعات تتدلى حتى نهاية أكتافها أضفى عليهن ثلج شتاء العمر لون الفضة، يعتقد إنّها ولدت لهذا العمل أو فيه، فقد إستطاعتْ هذه العجوز بحركتها الدؤوبة تلك، وحنانها الذي تمنحه للجميع دونما تفرقة أن تخترق العالم النسائي وتشارك العديد منهن أسراراً حميمة.

فعرفتْ أيهنَّ دمّرتها خيانة الزوج، وأيهنَّ تنتظر دون جدوى حلماً لم يتحقق بعد، وأيهنَّ تهرب من سجن أخوانها الى هذا المكان الخاص، والمخصص ليس لإزالة ماهو عالق من أوساخ جسدية بل

لإزالة همـوم الروح، أيـهنَّ تتطهـر بالماء لما إرتكبتْ من ذنوب وإيـهن تخـاف من أن لاتجـد لهـا خـلاصـاً بهـذه الحـيـاة فـتـبـقى تراقب المستحمات علّها تجد لها سلوى في هم واحدة أخرى تشاركها البوح.

أغدقنَّ عليها القاباً عدة وصرن ينادين عليها بخالة أو عمة أو جدة والبعض توهمنَّ قرابتها من صاحبة الحمام فسمينها علوية إسوة بالأخرى.

فقط صاحبة الحمام كانت تكنّها بأم غايب الأسم الذي سمعته من قريبتها ساعة أن أحضرتها للعمل هنا.

في هذا اليوم كانتْ كعادتها تدلكُ جسد امرأة شابة وتتجاذب معها أطراف حديث بموضوعات شتى،حين شعرتْ الأخرى بصداع إعتقدتْ إن لجو الحمام الخانق أثراً في حدوثه،

فماكان من أم غايب إلا أن تُنزل المرأة من على الدكة وتُجلسها على الأرض وتجعلها تتكىء على الجدار وتخرج الى غرفتها بحثاً عمّا يخفف حدة الصداع، ولما لم تجد شيئاً في غرفتها همتْ بالدخول الى الغرفة المقابلة لها وذلك بإدارة اَكرة الباب ودفعه قليلاً ليفتح والتي كانت مشغولة من قبل صاحبة الحمام وهي تقول بصوت مسموع:

– علوية هل.. وقطعتْ سؤالها وهي ترى شاباً يتلصص على المستحمات بإستراق النظر إليهن بإزاحة الستار قليلاً عن الشباك مديراً ظهره الى الباب، بينما إنتفضتْ صاحبة الحمام عن أريكتها وقامتْ فزعة لتواجه سرّها الذي إنكشف، أغلقتْ العجوز باب الغرفة،

وعادتْ سريعا الى غرفتها لترتدي ثوبها ذا الأكمام الطويلة وتعود غاضبة.

دخلتْ وأغلقتْ بعدها باب الغرفة التي تسلل الشاب منها خارجاً بسرعة فلم تلمح إلا ذيل دشداشته البيضاء وهو يختفي سريعاً،

– ماذا يفعل هنا.. صرختْ العجوز بوجه صاحبة الحمام التي أخذتْ تتلعثم بكلامها قائلة:

– إنّه ولدي... إنّه صغير.... لاتكترثي لطوله....إنّه صغير صدقيني !

– هذا التصرف لايليق بأمرأة مثلكِ... لكن يبدو إن الإنسان كلّ يوم يكتشف أمراً جديداً، أستغفرُ الله.... هؤلاء النساء أمانة عندكِ وأنتِ تفضحيهنَّ هكذا؟... أنا خارجة ولن أعود الى هنا.. الرزاق حي.. يا....علوية !

– أرجوكِ أم غايب إبقِ.... إنّه طفل ترجتها ماسكة بكمها والارتباك الشديد باد عليها، لكن العجوز خرجتْ الى غرفتها، وبسرعة شديدة جمعتْ أغراضها وإرتدتْ عباءتها وغادرتْ الحمام تتبعها توسلات صاحبته التي حاولتْ أن تحافظ على هدوء صوتها خشية ان تسمعها المستحمات.

– في الأقل خذي أجرك!

كادتْ تتعثر بعتبة باب الحمام وتسقط لسرعة خروجها وشدة غضبها وهي تتمتم بينها وبين ذاتها قائلة:

– أستغفر الله... في آخر عمري يفضحني الله هكذا... لابد إنني قد أذنبتُ ذنباً... ثم إستدركتْ بهدوء لتقول: لكنني لم أفعل شيئاً

سيئاً ربما أخطأتُ بحق الأولاد فعاقبني الله هكذا وجعل أبنـ.... أستغفر الله..... لو كنت متيقنة بطهارة ملابسي لذهبتُ الآن لزيارة الولي فربما أهدأ قليلاً ولكن ماذا أفعل أكاد أنفجر من الغضب.

كان غضبها مخيفاً أرادتْ الخلاص منه لوحدها فلم تستطع،إبتعدتْ عن الحمام كثيراً سارتْ في طرق عدة لم تسرّ بها من قبل مع هذا لم تهدأ بل أحستْ إن كلّ شيء تقع عليه عيناها يشي بالغضب.

مجاميع الشباب التي تحتل أركان الشوارع دونما عمل والتي تتفوه بالكلام البذيء كلما إقتربتْ أمرأة منهم، في جو حار ممتلىء بالأتربة كان يتلاعب بعباءتها ولايترك لها فرصة للتنقل بالطرقات بحرية،

الشوارع التي تشقق أسفلتها وصارتْ العربات تجرُّ نفسها عليها جراً، والجدران فقدت لونها لكثرة الشخبطات، حتى تلون جلّها باللون الرمادي، والأبواب ذات الالوان الصدئة، والمقاهي التي تضج بصيحات مدمني لعبتي الطاولي والدومينو التي تزعج المارة المقتربين منها،والدكاكين التي قلل العوز بضاعتها.

كلّ ذلك زادها غضباً لكن كرة بلاستيكية سقطتْ من يد أحد الأطفال على الرصيف الى وسط الشارع وركض ليلحق بها وقد تزامن ركضه إليها مع مرور دراجة هوائية مسرعة كان يقودها أحد الرجال كادتْ تدهس الطفل، جعلها تنسى غضبها وتسرع راكضة صوبه وتحمله الى صدرها وتعود به الى الرصيف مع سيل من شتائم أمطرها بها صاحب الدراجة.

– لاتخف سآتي لك بها.

هدأتْ العجوز الطفل وهي تضعه على أرض الرصيف وتذهب مسرعة الى وسط الشارع وتعود له بالكرة وقبل أن تمدَّ يدها وتعطيها له فُتح الباب وأخرجتْ إحدى النساء رأسها منه وهي تنادي طفلها وتدعوه الى العودة للبيت وتصيح بالعجوز أن تترك الكرة من يدها وتعيدها الى الطفل ناعتة إياها بالمجنونة.

لم تأبه أم غايب لكلامها، ولم تستدر نحوها، بل إبتسمتْ ووضعتْ الكرة بهدوء في كفيِّ الطفل الذي مدّهما نحوها حين شاهدها قادمة صوبه وهو يبتسم، أمسك الطفل بكرته بقوة وكأنه يخشى سقوطها من يده مرة أخرى، بهدوء مسدتْ رأسه وغادرتْ، مصحوبة بشتائم المرأة التي لم تتوقف عن السباب حتى وهي ترى العجوزتعبر الرصيف الى شارع آخر.

لم تشأ أن تطيل الإبتعاد كثيراً عن الشارع المؤدي الى البيت بعد أن خفتْ حدّة غضبها، بل عادتْ أدراجها إليه، ولكن بعيداً عن الشارع الرئيس المؤدي الى الحمام،

مرّتْ بالسوق ودكاكينه المقفلة ظهراً، ولفحتها حرارة دكان الخباز لكن رائحة الخبز الطازج أجبرتها على التوقف وشراء ثلاثة أرغفة حارة، لفّها لها الخباز بكيس ورقي قامتْ بوضعه في الحقيبة التي تضع بها أغراضها البسيطة وثوب العمل الذي لمّا يزل مبتل الطرف وعادتْ الى البيت، وكي لاتفزع التوأمين مثلما حدث في اليوم الذي عادتْ به باكراً مع صديقتها،فتحتْ الباب بسرعة ودخلتْ وهي تقول بصوت مسموع:

– لم تتغديا وتتركاني أليس كذلك؟!

إنتبه لها التوأمان اللذان كانا منهمكين برسم أوضاع مختلفة للدجاجة، أوضاع يتخيلانها فيها واقفة وماشية، تلتقط الحبَّ وتشرب الماء، تركا دفتريّ رسمهما يسقط من حضنهما الى الأرض وقاما يبتسمان وعيونهما ترنوان نحو الحقيبة المنتفخة المخفية تحت عباءة جدتهما، لكنها إنتبهتْ لذلك فقالتْ وهي تنزع عنها العباءة وتريهما الكيس الورقي وهي تخرجه من الحقيبة إنّه خبز... خبز حار.

لم يمرّ ذلك اليوم دون قلق كما توقعتْ الجدة، وهي ترى حفيديها سعيدين بوجودها معهما، ولم يسألاها عن سبب عودتها باكراً الى البيت بل ظلا يحاكيان إبتسامتها بإبتسامات متعددة ويعاودان التنصتْ لما يدور في الخارج لرسم صور مطلقي الأصوات في الشارع،

إذ إنّهما وبمجرد شعورهما بأن جدتهما قد إستسلمتْ للنوم ليلاً يبادر بسؤال أحدهما الآخر وبصوت هامس:

– هل تعتقد إن جدتنا تركتْ العمل؟

– لماذا تعتقدين ذلك؟!

– إنّه الثوب الذي جاءتْ به مبللاً في الحقيبة... ثوب عملها ألم تنتبه اليه؟!

– نعم. رأيته ولكنّها ربما أرادتْ غسله.

– أنتّ فعلاً أحمق.... هي تعمل في الحمام فلماذا لم تغسله هناك؟

– وماذا تعتقدين؟ّ!

– أعتقد إنّها قد تركتْ العمل... فلو كانت لم تترك العمل لجعلتْ الثوب يجف قبل أن تأتي به الى البيت.... أعتقد إن صاحبة العمل قد طردتها.

– طردتها؟!

– لاأدري.... ربما.

– ولكن جدتنا أمرأة طيبة.

– ربما دخل الشيطان بينهما.

– أوه....أرجوك الشيطان مرة أخرى؟.... لا تذكريني به...أريد أن أنام.

– على راحتك، أنا سأبقى أنظر الى السقف، ربما سأغفو لأنني لم أشعر بالنعاس بعد!

– تصبحين على خير.. قال الفتى وأدار رأسه الى الجانب الآخر بينما بقيتْ أخته تتطلع الى السقف علّ خيوطاً من النعاس تتدلى إليها فتأخذها الى جنة النوم.

في الساعة العاشرة صباحاً إستيقظ الحفيدان فوجدا جدتهما وقد أنجزتْ كلّ الأعمال البيتية، وراحت رائحة طعام الغداء تداعب أنفيهما،

لم يسألاها عن سبب عدم ذهابها الى العمل، بل ألقيا عليها تحية الصباح وبدأا كعادتهما يقصّان عليها أحلام الليلة الفائتة.

هي أيضاً حكتْ لهما ما رأته من حلم أمس وهما يتناولان الإفطار، بعدها إقتربتْ منهما وكأنّها تريد إخبارهما بسرٍّ لتقول لهما بشيء من عدم الراحة:

– سـأعيـد فتح الدكـان.. بعـد قليل سـأقوم بتـهـيئـته من جـديد... سأشتري بضاعة بما إدخرتُ من نقود... والنقود تأتي بالنقود.

– وعملكِ جدتي ماذا حدث له؟ سأل الفتى.

– تركته... أجابتْ.

– لم؟ سألتْ الفتاة.

– حدث شيء لاأستطيع أن أبوح لكما... بيني وبين صاحبة العمل.

– ماهذا الشيء جدتي ألحَ الفتى عليها.

أقتربتْ الجدة منه كثيراً في جلستها ونظرتْ مباشرة الى عينيه وهي تقول بصوت أرادتْ منه أن يكفّ عن ألحاحه في السؤال.

– لقد دخل الشيطان بيننا!

تراجع الفتى بوجهه الى الوراء قليلاً على أثر هذه الجملة التي أخافته ثم طأطأ برأسه الى الأرض رافعاً عينيه الى أخته التي بانت على فمها إبتسامة ماكرة تذكّره بما قالته له ليلاً عن الشيطان،

بدأتْ العجوز العمل في تهيئة الدكان بهمة كبيرة، فأعادتْ الرفوف الخشبية الى مكانها بإستعمال المساميرالمستعملة التي وجدتها ورفعتها عن مكانها بسهولة.

إنتبهتْ الى سرعة إختراق المسامير للجدران حتى إنّها تخيلتْ إن مسماراً طويلاً يستطيع أن يحدث ثقباً في الجداروخرج من الجهة الأخرى بقليل من الضغط عليه، تحققتْ من هذا الأمر في غرفة التوأمين أيضاً فوجدت الحال نفسه.

الأمر الذي جعلها تقلق كثيراً من وضع البيت الذي كان مبنياً بلا

أساس، حاله حال بيوت هذا الشارع القديم، لكن ما نوتْ عليه من عمل جعلها تؤجل التفكير في هم كهذا خصوصاً وإنّها لاتملك نقوداً تساعدها في إعادة بناء البيت أو حتى ترميمه من جديد، بعدها كنستْ أرضيته وصعدتْ الى السطح لتجد فيه حصيراً من الخوص لم يتأكل بعد كثيراً، أزالتْ ما علق به من تراب وأنّزلته لتفترش به أرض الدكان، بعدها خرجتْ الى السوق لتأتي بما لزم لإعادة فتحه.

هذا اليوم كان يوماً مميزاً لهما لأن جدتهما ستبقى قريبة منهما، لن يشعرا بعد الآن بالوحشة ولن يتخيلا عيوناً تتلصص عليهما طوال الوقت كما كانا يفعلان عند غياب الجدة.

فكرا في إختراع لعبة جديدة لم يلعباها من قبل، لعبة لم يسمعها بها من الجدة ولا تمتُ لسابق لعبهما بصلة، لذا أمسك الفتى قلم الباستيل الأسود بأصبعه وطلب من أخته أن تقوم الى حيث المرآة،

أقتربا منها تحسسها، الفتى بيده قليلاً، ثم خطّ بها خطاً عريضاً من الأعلى الى الأسفل قاطعاً به المرآة الى نصفين شبه متساويين، ثم ترك القلم من يده ليسقط على الأرض وهو يقول لأخته مشيراً لإنعكاس صورتها في المرآة:

– هذا أنا... هذه أنتِ.

إستجابتْ الفتاة لقانون هذه اللعبة التي وضعها لها أخوها وبقيتْ متصلبة في مكانها أمام المرآة لا تحيد عن الخطّ المرسوم فيها، فبانتْ صورتها المنعكسة وكأنها تمتلك جسداً مستقلاً.

جسداً خاصاً بها يعنيها وحدها أحستْ بفرح لم تشعر به من قبل، وهي تحرك يديها بحركات تماثل فيها كلاماً مسموعاً تنطق به بينما

طوى أخوها يديه أمامه منتظراً دوره في اللعبة.

قالتْ وهي تحاكي كلامها بالإشارة:

– ها أنذا وأشارتْ الى وجهها وتابعتْ: أنا هي، أنا وحدي،انا إمرأة، أنا جميلة.... وهذاالواقف هناك.. أخي وهي تشير الى وجه أخيها المبتسم.

صفق لها أخوها فتوقفتْ عن الحركة والكلام وأسبلتْ يديها الى الجانب فحرّك الفتى يديه بإشارات عديدة وحيا بها صورته في المرآة وهو يقول:

– مرحبا كيف حالكم؟... أنا رجل هذا شاربي ورسم بأصبعه خطاً وهمياً فوق شفته العليا تحت أنفه.. أنظروا أليه هذا هو.. أنا رجل كبير... وهذه الحمقاء التي بجانبي اختي الصغرى واشار بأصبعه نحوها.

ضربته على يده بسرعة ضربة خفيفة ثم وضعتْ سبابتها على فمها وكأنّها تطلب منه أن لايوجه لها كلاماً سيئاً أمام ناس متخيلين.

بسرعة إمتثل لها وقال وهو يحرك يديه:

– عفوا أنا رسام... وأختي رسامة نرسمكم طوال اليوم... نرسمكم حينما تقتربون من آذاننا... نرسمكم حين تركضون، وحين تمشون، وحين تلعبون... نرسم كلّ حركاتكم... أنظروا الى التي تقف الى جانبي هذه، واشارالى أخته ستعرض عليكم اللوحات التي رسمناها لكم بعد قليل.

تسللا ببطء بعيداً عن المرآة وأحضرا اللوحات المرسومة وبدأتْ

الفتاة بعرضها على المرآة، أما الفتى فأخذ يعلّق عليها بصوت مسموع بعد أن أسبل يديه الى الجانب تعليقات من مثل:

–هذا جاري الصغيرالذي لم يرني أبداً.. ولم أره بعيوني طبعاً يركض وراء الكرة، وهذا شخص لم يشاهدني مطلقاً وأنا أيضاً لم أشاهده بعيوني أيضاً يقترب من دكان جدتي، وهذه دجاجتنا الجميلة التي نراها وترانا.... وهذه الحلوة جدتي... أنظروا إليها كم هي جميلة.. الله !

كانت أخته تُري المرآة اللوحات وهي منتشية بسعادة غامرة تتخيل فيها أن أناساً يرون ما تعرضه عليهم من لوحات ويشاركونها اللعبة، مضى الوقت سريعاً،وهما يلعبان لعبتهما الجديدة هذه، لكن صوت توقف العربة وفتح باب الدكان جعلهما يتنبهان الى قدوم جدتهما من السوق، فأسرعا وأحضرا منشفة قديمة بللاها بماء قليل وأخذ الفتى يمحو خط الباستيل الذي رسمه في وسط المرآة.

فقد كانت جدتهما تمسح المرآة بالقماش المبلل كلّما وجدتهما قد رسما عليه بعض الأشكال بأقلام الباستيل حين كانا صغيرين.

حركة يده وجسده في التنظيف تلك جعلتْ جسد أخته يستجيب أيضاً للحركد نفسها دونما إرادة منها، وبالكاد أبقتْ الفتاة على اللوحات مجموعة بيديها دون أن تسقط منها الى الأرض.

إنتابها حزن وهي تفطن الى إنهما كائن واحد متصل الى الأبد مادام حياً، كائن لايمكنه أن ينفصل الى إثنين أكثر من ساعات متخيلة في لعبة مخترعة، مرّت ظهيرة اليوم على العجوز وهي تهيىء دكانها لوحدها.

فقد أدخلتْ صناديق البضاعة والأكياس التي إبتاعتها من السوق بمشقة بالغة، حين تركها سائق التكسي في باب بيتها وغادر.

حملتْ ماكانتْ تستطيع حمله وسحبتْ ما كان ثقيلاً الى الدكان وأغلقتْ بعدها الباب ثم أفرغتْ محتويات الصناديق ووضعتْ بعضها على الرفوف، أما السكر والملح والطحين فقد وضعتْ أكياسه تحت المنضدة التي يتوسطها الميزان وعلبة الزيت الكبيرة و تأكدتْ من إن كلّ شيء قد عاد الى مكانه قبل أن تغادره عائدة الى البيت منهكة.

في صباح اليوم التالي تقاطر الأطفال صوب دكان العجوز للتبضع، بعدها قدِمتْ النسوة يدفعهنَّ الفضول لمعرفة سبب إغلاق الدكان طوال هذه المدة أكثر من حاجتهن لشراء ما جئن من أجله.

فواحدة تحججتْ بشراء علبة كبريت وأخرى كانت حجتها شراء صابونة، وغير ذلك، لكن جميعهن بدأن برواية ما كان قد حدث لهن وبمجرد أن تسألهنّ أم غايب سؤالاً عابراً مفاده (وانتِ كيف حالكِ؟). في نهار واحد عرفتْ العجوز كلَّ أخبارأهل الشارع التي لم تكن على دراية بها، عرفت من خُطبتْ، ومن على وشك الوضع،من تركتْ بيت زوجها غاضبة،ومن إشترتْ عباءة جديدة، ومن قامتْ بخياطة ثوب لها أو لأولادها، من تزوج أخيها ومن أقلع زوجها عن التدخين بسبب مرض ما، ومن ساءتْ صحة أمها.

أخبار وحكايات كانت تبتدىء بجملة صارتْ مألوفة على مسمع العجوز تقولها كلّ من أرادت التحدث في موضوع ما (حين كان دكانكِ مغلقاً).

لم تكن المرأة قبل هذا اليوم على دراية بما حدث لجارها إلا حين

رأت زوجته تخرج من بيتها مسرعة تبحث عن ولدها كي يأتي لها بشيخ من الجامع، أخبرتها إحدى المتبضعات إن هذا الرجل لمايزل يحتضر منذ أكثر من شهرين،كلما سمع أهل الشارع صياحاً ظنوه صادراً عن زوجته أو إحدى بناته يعلن عن موته.

كانت المرأة لماتزل تتحدث لها عن الرجل المحتضر حين حضرشيخ يعتمر عمامة بيضاء ويرتدي عباءة رمادية خفيفة مصنوعة من خيوط الصوف يتأبط كتاباً يحث الخطى ويسرع في الدخول الى بيت المحتضر بصحبة ولده الكبير.

– السلام عليكم قال الشيخ ودلف الى غرفة المحتضرالمحاط بعائلته وبعض رجال الشارع المسنين.

– عليكم السلام شيخنا ردَّ الرجال عليه بصوت متزامن.

– تفضل الى هنا قال ولده الصغير وقام عن رأس أبيه الذي كان ممدداً فوق فراش نظيف وقد غطى شرشف أبيض نصف جسده،

بينما أختنق صوت النساء الحاضرات بدموعهنَّ المكتومة خشية أن يسمعها المحتضر وإكتفينَّ بهز رؤسهنَّ كإشارة للترحيب بقدوم الشيخ الذي جلس بمحاذاة رأس الرجل،

غير إن الرجل المحتضر وحين دخول الشيخ وجلوسه الى جوار رأسه شاهد طفلاً صغيراً عارياً تماماً من ملابسه يدخل معه ويجلس في حضنه.

فغر الرجل المحتضر فاهه وأومأ بأصبع سبابته نحو حضن الشيخ إيماءة واهنة محاولاً الكلام، فأعتقد كلٌّ من حوله إنّه يطلب من الشيخ

أن يقترب ليوصيه وصية ما، لكنه هزَّ رأسه رافضاً حين قرّب الشيخ أذنه من فمه وأومأ هذه المرة الى الكتاب الموضوع بجانب الشيخ وهو يرى الطفل يجلس عليه،

فما كان من الشيخ إلا أن يقوم برفع الكتاب ذي الجلد الأسود السميك إليه ويفتحه ملقناً إياه العديلة قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أبن أدم رَضيْتُ بالله رَبّاً وَ بالإسْلام ديناً وَ بمُحَمَّد صلَّى الله عَلَيْه وآله نَبيّاً وَ بالقُرآن الَّذي أُنزلَ عَلَى مُحَمَّد صلَّى اللهُ عَلَيْه وآله كتَاباً وَ بالكَعْبَة قبْلَةً وَ بالصَّلاة فَريضَةً وَ بعَلي عَلَيْه السَّلامُ إمَاماً وَ بالحَسَن وَ الحُسَين وَ عَليّ بْن الحُسَين وَ مُحَمَّد بْن عَليّ وَ جَعْفَر بْن مُحَمَّد وَ مُوسَى بْن جَعْفَر وَ عَليّ بْن مُوسَى وَ مُحَمَّد بْن عَليّ وَ عَليّ بن مُحَمَّد وَ الحْسَن بْن عَليّ وَ مُحَمَّد بْن الحْسَن صَاحب الْعَصْر وَ الزَّمان وَ خَليفَة الرَّحْمن وَ مُظْهر الإيمان سَيّد الإنْس وَ الجَانّ صلَوات الله وَ سَلامُهُ عَلَيْه وَ عَلَيْهمْ أَجْمَعين، أَئمَّةً وَ سَادَةً..

يا اللهُ يا أَرْحَمَ الرَّاحمينَ إنّي أَوْدَعْتُكَ يَقيني هذا و الإقرارَ بكَ وَ بالنَّبيّ وَ الأئمَّة عَلَيْهمْ السَّلامُ وَ أَنْتَ خَيرُ مُسْتَوْدَعٍ فَرُدَّهُ عَلَيَّ وَقْتَ سُؤَال مُنْكَر وَ نَكير برَحْمَتكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحمينَ وَ صَلّى اللهُ عَلَى سَيّدنَا وَ نَبيّنا مُحَمَّدٍ وَ آله الطَّيّبينَ الطَّاهرينَ.

لكن الطفل العاري بدأ يتقافز في مكانه مصفقاً، يصرخ بصوتٍ عالٍ مسموع للمحتضر وحده دون الآخرين يتردد صداه في الغرفة

كلّها ويرتفع عند كلّ جملة من جمل الشيخ.

كاد صياح الطفل أن يصمَّ سمع المحتضر الذي وضع سبابتيه في كلتا أذنيه مُصدِراً أنيناً عالياً ومُحرِكاً رأسه بعنف على وسادته يميناً وشمالاً.

– أستغفر الله قال الشيخ مستنكراً مما يرى من حال الرجل وقرّب رأسه مرة أُخرى إليه وهو يقول :

– قل يا ابن آدم أشهد أن لا الله إلا الله وإن محمداً رسول الله.

حاول الرجل ان يفتح فمه مردداً مايقوله الشيخ غير إن الطفل أسرع إليه وجلس على وجهه ممتطياً إياه كحصان، فشعر بالإختناق وأخذ يحرك رأسه ثم جسمه كلّه حركات عشوائية مثل غريق محاولاً الصراخ.

بدأ الشيخ يرفع صوته عالياً حتى سمعه كلّ من كان يقف خارج الغرفة مردداً.

– قلْ يا رجل لاالله إلا الله محمد رسول الله، غير إن الرجل ظل يرفس برجليه كغريق محاولاً إلتقاط أنفاسه التي بدأتْ تقلُّ بالتدريج. شعر الشيخ بغضب شديد وهو يرى رفض المحتضر وتبرمه من إداء الشهادة فأغلق الكتاب بعصبية ووضعه تحت إبطه ولملم اطراف عباءته فهدأ الرجل وفتح ببطء عينيه ليرى الطفل العاري وقد صعد على كتفِّ الشيخ.

تنبه الشيخ الى الرجل الذي رآه يطيل التحديق في أعلى كتفه فتلفتَ يميناً وشمالاً فلم يلمح سوى الواقفين في الغرفة، حوقل مراراً

وخرج من الغرفة الى الشارع مسرعاً وبخطوات سريعة إتجه نحو الجامع.

بخروج الشيخ تفرق الجمع عن الرجل المحتضر، خرج الرجال المسنون الى بيوتهم وكثير من الأسئلة تدور في رؤوسهم وإنسحب أفراد العائلة عن غرفة أبيهم الى اعمالهم اليومية،

الوحيدة التي بقيتْ معه في غرفته زوجته التي أتتْ بفراش بسيط لها وإفترشتْ به الارض لتبقى تراقبه عن كثب.

هبط الليل وبنزوله بدأتْ علامات الحياة تدبُّ في الرجل رويداً رويداً، حرك أولاً قدميه ثم ذراعيه وإستدار برأسه الى زوجته التي كانت لماتزل متيقظة ترقب حركة إنفاسه.

– إقتربي مني!

همس الرجل بصوته الواهن لزوجته وبدا وكإنه يريد أن يخبرها سراً..

– ماذا؟ قالت الزوجة وهي تقترب منه زاحفة الى فراشه.

– إغلقي الباب جيداّ... فانا اريد ان اقول لك شيئاً.

– الباب مغلق.. أنا متأكدة.. أنظر إليه.. هيا قل؟

– أعدليني قليلاً لأجلس.

أسرعتْ المرأة وعدّلتْ زوجها على فراشه ووضعتْ الوسادة وراء ظهره فجلس متكئاً عليها، ثم طلب منها قليلاً من الماء فمدتْ يدها نحو قدح الماء القريب منها، وقربته من فمه، فإرتشف قليلاً منّه، وحين إسترد أنفاسه بدأ الكلام معها بصوت واهن خفيض..

– هل تذكرين ابنة عمي؟... ابنة عمي التي تسكن في الريف؟

– نعم.. أذكرها.. مابها؟

– كان لها طفل صغير... أتذكرينه؟

– طفل.... نعم الذي مات غريقاً؟

– هو لم يمت... غريقاً...انا....من قمتُ بإغراقه.

– ماذا؟... ماذا تقول؟ وشهقتْ المرأة وهي تنظر الى زوجها الذي طأطأ برأسه الى الأرض، وإستمر في الحديث بصوت كلّه ندم:

– حين طلبتُ منها الزواج بعد مقتل زوجها في الحرب رفضتني.... فأردتُ الإنتقام منها.... ذهبتُ إليهم في الريف.... وعلى غفلة منها ومن أهلها إصطحبتُ الصغير الى النهر وأغريته بالسباحة... مقابل أن أشتري له لعبة قطار متحرك... إذا ما سبقني في العودة الى الجرف.. خلعتُ عنه ثيابه ورميته في النهر.... وذهبتُ الى بيت أخي متظاهراً بحاجتي لإستدانة بعض المال منه...

– لكن المسكينة كادتْ تموت حين شاهدتْ جثة طفلها طافية على النهر... لماذا فعلتَ ذلك؟ صرختْ الزوجة في وجهه.

– لاتصرخي أرجوكِ... الغضب أعماني.. ارجوكِ.. أتوسل إليكِ.. جدي لي حلاً أريد أن أموت بسلام.. إنّه يمنعني من ذلك..... قال كلامه وأخذ ينتحب والدموع تسيل من وجنتيه.

تراجعتْ المرأة عنه وعادتْ وجلستْ على فراشها شابكة أصابع يديها فوق رأسها مغمضة عينيها بشدة وكأنّها لاتريد أن ترى زوجها ولاتصدق مايقول.

– ماذا قلتِ؟... هل ستساعديني أم لا؟...أرجوكِ هذا طلبي الأخير منكِ.. أريد أنَ أمـوت..... جـدي لي حـلاً.... توسل الرجل زوجـتـه بصوت متقطع.

– نمْ الآن.. دعْ الأمر لصاحب الأمر ردتْ عليه وفتحتْ عينيها ونظرتْ نحو الأعلى.

أراد الرجل أن يعود للنوم في فراشه فلم يستطع، فأسرعتْ إليه وساعدته على التمدد على فراشه، وغطّته بشرشفه دون أن تنظر في وجه.

لم تنم، بقيتْ طوال الليل تستعيد ما أخبرها به زوجها، ربطتْ بين حوادث عدة مرتْ بها.

ربطتْ بين ذهابه الى الريّف كلّ أسبوع وتحججه بزيارة أخيه المريض، بين حالة الخوف التي حلّتْ به ساعة سماعه بخبرعثورهم على جثة الصبي الغريق، ورفضه الذهاب لزيارة ابنة عمه بحجة إنشغاله بعمله وعدم ذهابه إليها إلا عند إنتهاء التحقيق في القضية،

مرّ في ذهنها شريط الذكريات وإستوقفتْ ما شاءت منه من أحداث وأبعدتْ الكثير منها غير مصدقة، هازة رأسها كعلامة على رفضها لتلك الذكريات التي بدتْ مخيفة، وبدتْ فيها جاهلة بكلِّ ماحدث، فقد حوّلها كلام زوجها معها وبوحها لها بسرّه المخيف الى إمرأة غريبة عنّه تماماً، إمرأة عاشتْ كلّ حياتها مع رجل يشتهي غيرها، رجل إستطاع أن يقتل طفلاً ببساطة ويرتدي أمام الجميع وجه البريء البار بأخ مريض.

حين حلَّ الصباح وطرق نوره شباك الغرفة الكبير، تسللتْ المرأة

من الغرفة وخرجتْ دون أن تنظرصوب زوجها أيما نظرة، بل خرجتْ غير مكترثة به، وأعدتْ إفطار العائلة المعتاد، ثم توجهتْ صوب فرن الصمون الذي وجدته وقد فتح أبوابه باكراً كعادته، وإبتاعتْ بعضاً منّه وحين عودتها الى بيتها لمحتْ أم غايب وهي تكنس العتبة المقابلة لباب دكانها وترشها بماء قليل مثلما كانتْ تفعل في الايام السابقة.

عبرتْ الشارع صوبها وحيّتها بتحية الصباح فبادرتها الأخرى بعد أن ردتْ التحية بسؤالها عن أحوال زوجها المريض، ثم سارعتْ بالدعاء له طلباً في شفائه،

شكرتها المرأة ووصفتْ لها مآل حالة الزوج الآن،وكيف إنّه بدأ يتعافى قليلاً اليوم، وهي تريد أن تطعمه قدحاً من الحليب وقطعة من الصمون الحار، ولما شاهدتْ ملامح وجه أم غايب وقد بان عليها السرور إقتربتْ منها وبصوت ملؤه التردد بدأتْ بالحديث معها:

– أم غايب هل تعرفين مقدار دية الطفل المقتول؟

– ماذا؟! أجابتْ العجوز بإندهاش.

– أمس تراهنا أنا وإحدى النساء التي زارتنا عن مقدار الدية.... هي قالتْ إنّها مقدار دية الرجل الكبير نفسه قالتْ المرأة ذلك بإرتباك.

– والله أنا سمعتُ إن لكلِّ شخص دية.. فهناك دية للرجل، وأخرى للمرأة، وثالثة للطفل.. وتختلف الديات حتى بأداة القتل.. أنا أعتقد لو أنكم تسألون الشرع في ذلك يكون أفضل.

شكرتها المرأة وإبتاعتْ منها قنينة حليب طازجة وعادتْ الى بيتهم فوجدت إحدى بناتها وقد إستيقظتْ فسألتها عن أبيها فردتْ عليها

بأنّه مستيقظ وقد طلب منها شاياً. سخنتْ المرأة الحليب،وسكبته في قدح،ووضعتْ معه صمونة،ووضعتْ الإثنين في صينية،وطلبتْ من إبنتها إدخالها الى أبيها كي يأكل ولو قليلاً منه، بينما جلستْ هي مع أولادها الذين أستيقظوا تباعاً وتناوبوا على الذهاب الى غرفة إبيهم ليطمئنوا على حالته قبل أن يجلسوا بقربها للإفطار.

أكتفتْ هي بإحتساء الشاي وإرتدتْ جوارب سوداً وفوطة رأس جديدة وعباءة جديدة أيضاً، وأوصتْ الاولاد بالإهتمام بأبيهم حتى تعود، وخرجت دون أن تأبه بنظرات أولادها المتسائلة عن سبب خروجها الباكر اليوم، فهي لم تغادرالبيت منذ مرض أبيهم،

غير إنهم فسروا خروجها ذلك بنذر نذرته لولي أرادت تأديته اليوم لتحسن صحة والدهم، خصوصاً وإنها قد إرتدتْ العباءة الجديدة التي لاترتديها إلا حين تكون ذاهبة لزيارة الولي.

قبل آذان الظهر عادتْ الى البيت لتدخل مسرعة الى زوجها وتخبره دون ان تنظر إليه بأنّها قد سألتْ الشرع في أمره فأخبرها إن مايترتب عليه هو القصاص لأنها جريمة متعمدة، ولكن هناك من قال بدفع دية الطفل المقتول إذا وافق أهله، إستمع لها الرجل بحزن شديد وتكلّف أمامها أن يبقى صلباً خصوصاً حين أحسَّ بكراهيتها له، وإنها تكفلتْ فعل ذلك حتى تعجل في فراقه ليس أكثر!

نظر إليها فوجدها لم تنظر إليه منذ دخولها الى غرفته، بل كانت تنقل بصرها الى كلّ زاوية من زوايا الغرفة وهي تتكلم معه، أغمض عينيه ممتعضاً وقال لها بصوت متقطع:

– أرجوك... إذهبي... وإقنعي أبنة عمي... بالمجيء الى هنا؟! ثم

صمتَ، فأحستْ زوجته إن طلبه هذا سيكون آخر طلب في حياته.

في صباح اليوم التالي أرتدت ما أرتدته بالأمس ولم تنتظر حتى يستيقظ أبناؤها بل ذهبتْ الى مكان نوم إبنتها الكبيرة، وأوصتها بمراقبة أبيها وإعطائه الدواء في وقته حتى تعود، وإخبار كلّ من يسأل عنها بأنها قد ذهبتْ للريف لأمر مهم.

قبل حلول المساء كانت المرأة قد عادتْ الى بيتها مع أم الطفل القتيل وجدته.

دخلت النساء الى غرفة الرجل المحتضر فلم يرفع نظره صوبهنَّ بل ردَّ عليهنَّ التحية بصوتٍ واهنٍ ينبىء عن الخجل والخوف والحزن،

ثم طلب من إبنة عمه أن تجلس الى جانبه، فأدركتْ الزوجة ماعزم عليه زوجها إقتربتْ من المرأة الأخرى وأمسكتْ بيدها وأخرجتها لتجلس معها في غرفة ثانية وقد أحاط الأولاد بهنّ يسألونهنّ عما يجري ألآن، لايجدون لإسئلتهم إجابة سوى كلمة (لاشيء) التي تخرج من فم الأم بحسرة ونظرات الحيرة المتبادلة بينها وبين المرأة الأخرى.

مرّ من الزمن مايقارب نصف الساعة قبل خروج المرأة من غرفة الرجل المحتضر ماشية كالمنومة بملامح جَمُدَ التعبير فيها، وقد سقطتْ عباءتها عن رأسها الى الأكتاف،خطتْ خطوات واهنة نحو غرفة الجالسين وسقطتْ مغشية عليها.

ركض صوبها الجميع إلا واحدة هرعتْ صوب غرفة أبيها المفتوحة الباب فوجدته ينظر الى الأعلى وقد سالتْ دموعه على زوايا عينيه وبللتْ الوسادة.

تبـادلتْ مـعـه النظرات وخـرجتْ مـسـرعـة صـوب المرأة التي بادر الجميع وسط فزع أمـهـا وصـراخـهـا عليـهـا،الى العمل على إفاقتـهـا مدلكين يديها ورجليها وراشين القليل من الماء على وجهها ثم محاولة سحبها صوب الحائط لتتكىء عليه..

بالتدريج أفاقتْ المرأة وإلتقطتْ أنفاسـهـا بصعوبة فسـارعتْ أمـهـا لسؤالها بصوتٍ عالٍ:

– ماذا قال لك؟

لم ترد على سؤالها، بل حركتْ فمـهـا قليلاً وهـي مغمضـة العينين، ولما ألحتْ عليها بالسؤال مرة أخرى، وثالثة، نظرتْ صوبها فإنسكبتْ الدموع على وجنتيها وكأنَّ كلّ دموعها كانت مخزونة لهذه اللحظة.

عندها تراجعتْ زوجة المحتضر عنها الى الوراء قليلاً وأخذ الأولاد يتبادلون نظرات التساؤل فيما بينهم.

جمعتْ المرأة كلّ قواها، وإنتفضتْ قائمة لترتدي عباءتها وتسرع بفتح باب البيت وتخرج، وصوت أمها يرتفع بعدها متسائلاً:

– ما الذي قاله لك؟... لِمَ لا تنتظري حتى الصباح؟

كانت المرأة قد عبرتْ الشـارع الى الجهة المقابلة حين تبعتها أمها متحدثة بكلمات لم تعد مفهومة من شدة الغضب،

حاولتْ الزوجة اللحاق بهنّ غير إنّها لم تفلح في ثني عزيمة المرأتين عن مـغـادرة البيت والبـقـاء حـتى الصـبـاح، أغلقتْ البـاب بعـدهمـا وجلستْ القـرفـصـاء شـابكة يديهـا فـوق رأسـهـا مطأطئـة إياه الى الارض.

ركضتْ إحدى البنات إليها وأسرعتْ في سؤالها عن الذي حدث، فأجابتها الأم وهي تنتحب (لقد مات).

لم ينتظر الأولاد الباقون أمهم لتكمل جملتها بل أسرعوا الى غرفة أبيهم وحين دخلوها، علا صوت صياح أنثوي أحدث دويا في سكون الليل.

أغلقتْ أم غايب دكانها ثلاثة أيام متوالية حداداً على جارها الميت وصارتْ تذهب لتشارك النساء مراسيم العزاء ولاتعود إلا في وقت المغرب.

بينما التوأمان وجدا في أصوات المعزّين و المعزّيات مادة دسمة للرسم فإمتلأت لوحاتهما بأشكال مختلفة لأفواه صارخة وعيون باكية وأطفال يتشاجرون مع بعضهم البعض لأبسط الأسباب.

كانت الجدة حين تنظر الى تلك اللوحات تشعربحزن تحاول إخفاءه عنهما بالتكلم عن أشياء جميلة لمحتها أو مواقف لم يفطن لها الأخرون.

وفي اليوم الذي تلا إنعقاد مراسيم الفاتحة عادتْ لفتح دكانها وعند الظهيرة أغلقته لتتناول مع حفيديها الطعام.

دخلتْ غرفة حفيديها فوجدتْ العرق يتصبب من جسديهما ودون أن تتكلم صعدتْ وبسرعة على سريرهما وإتجهتْ نحو شباك الغرفة الوحيد العالي وفتحتْ إحدى ضلفتيه الصغيرة فدخل منها ضوء الظهيرة الحاد، وقليل من الهواء الذي سرعان ما أمتزج بهواء المروحة ليصبح حاراً أكثر.

لم يصدق التوأمان مافعلته جدتهما حين فتحتْ الشباك الذي طالما

كانت حين دخولها الى الغرفة تتأكد من بقائه مغلقاً رغم علمها بأنّهما لن يفتحاه حتى وأن تسنى لهما ذلك كي لايغضباها.

فرحا بالنور الطبيعي الذي دخل الغرفة وقللَّ من ظلمتها التي لاتنتهي حتى بوجود ضوء المصباح الكهربائي الوحيد المعلق في سقفها.

حدقا طويلاً في خيط الضوء الأبيض الداخل من النافذة، وشاهدا ماعلق فيه من غبار سابح فيه، فإنفتحت حدقاتهما بإتساع أمام مايشاهدانه، مدّ كل منهما يديه صوب ذلك الغبار المتطايرمحاولاً الإمساك به، لكن الأيدي كانت تخترق الضوء دون أن يعلق بها شيء. ظلا يلعبان هذه اللعبة بإندهاش وفرح وحين دخلتْ جدتهما ووجدتهما على تلك الحالة من السعادة لم تحاول أن تنغص عليهما إكتشافهما فوضعتْ صينية الطعام على الأرض بهدوء وأخذت تأكل،

وحين سمعا صوت الملعقة وهي تصطدم بصحن الطعام إستدارا نحوها فوجداها تأكل.

إبتسما لها وخرجا صوب الحمام وغسلا إيديهما وعادا ليجلسا معها ويأكلا وأفكارهما متعلقة بما يدور في خيط الضوء ذلك.

أنهتْ طعامها بسرعة وتركتهما يأكلان وصعدتْ الى السطح، جمعتْ الصناديق الورقية التي كانتْ قد تناثرتْ بفعل تيارات الهواء الحارة ووضعتها في أحد أركانه، ثم رشته بالماء وكنستْ أرضه من التراب و نزلتْ.

وقفتْ بباب الغرفة بثيابها السود التي أضحتْ تتسربل بطيات من تراب التنظيف فوجدتْ التوأمين وقد أنهيا طعامهما وأعادا الصينية

الى المطبخ وعادا يخرقان خيط الضوء بيديهما والعرق يتصبب منهما.

لم تدخل إليهما بل ظلتْ واقفة في الباب ونادتهما للخروج كي يستحما معها، عصبتْ عيونهما وخلعتْ عنهما ملابسهما وأدخلتهما الى الحمام سحباً من يديهما بعد ان دخلتْ هي قبلهما، وأنارتْ مصباحه الكهربائي كي لاتنزلق فتسقط وتُسقط حفيديها معها،

ومع إنّهما كان يشعران بإنتعاش لذيذ من الماء النازل على جسديهما لكنّهما كانا يطلبان من جدتهما أن تُسرع في إنهاء الإستحمام كي يعودا الى خيط الضوء النازل من الشباك ويراقبا ذرات التراب الموجودة فيه.

نفذتْ الجدة طلب حفيديها ولم تطل في إستحمامهما بل انهته بأسرع مايمكن، ورفعتْ العصابة عن عيونهما لتعانقا من جديد الضوء النازل من الشباك،

ورغم حلول المساء لم تنخفض درجة الحرارة بل بقيتْ على حالها كما توقعتْ العجوز، فبدا جوّ الغرفة معها خانقاً، بالكاد إستطاعتْ الجدة وحفيداها إكمال طعام العشاء داخلها.

وبعد العشاء مباشرة صعدتْ الجدة مرة أخرى الى السطح وتفحصتْ الجدران المحيطة به، لتتأكد من ان لا أحداً يستطيع أن يرى مانوتْ على فعله، ونزلتْ.

دخلتْ الى الغرفة ورفعتْ من ظهر الصندوق العالي فراشين بسيطين مصنوعين من الأسفنج،حملتهما واحداً على الآخرفوق رأسها، وصعدتْ بهما الى السطح أمام دهشة الحفيدين اللذين كانا

يتعقبانها بالنظرات.

ثم عادتْ بعد أن فرشتهما هناك متلاصقين لتحمل فراشها وتفترش به أرض السطح أيضاً.

لم يصدق التوأمان ماسمعاه حين نادتهما جدتهما قائلة:

– هيا سننام اليوم فوق السطح، لكني سأوقظكما عند السادسة صباحاً وستكملان نومكما بعدها في الغرفة، فقط أرجو أن لاتتكلما بصوتٍ عالٍ كي لايسمعكما الجيران فجميعهم ينامون على السطوح الآن.

وقفا عند باب السطح متفاجئيّن بمنظر السماء ذات اللون الأسود إذ لم يسبق لهما أن شاهداه من قبل.

ثم سارا ببطء شديدٍ نحو فراشيهما الملتصقين رافعي رأسيهما الى السماء يحدقان بالعدد الهائل للثقوب المضيئة التي تتلألأ بشدة، ولّما رأتْ جدتهما مايفعلان قالت لهما بصوت خافت:

– هذه نجوم !

إستلقيا على ظهريهما وبدأا يتخيلان ماترسمه تلك النجوم بتجمعها سوياً،

لكنهما أرادا أن يسألا جدتهما عن عددها وفائدتها وأحجامها؟ وأرادا أن يعرفا كيف صعدتْ الى فوق وكيف تلتصق بالسماء؟ وهل ستسقط عليهما إذا ناما تحتها؟

لكن إغفاءة جدتهما بمجرد أن هبّ نسيم عليل وداعب وجهها جعلتهما يؤجلان كلّ تلك الأسئلة الى وقت آخر، ويرسمان بالإشارة أشكالاً شكّلها تجمع النجوم مع بعضها بعضاً.

بقيا على هذا الحال أسبوعاً كاملاً، سعيدين بمرأى النجوم ليلاً مع تعانق أيديهما خيط الضوء وما علق فيه ظهراً، فركنا لوحاتهما الى جانب السرير، ولم يتنصتا على الأصوات التي تصدر من الخارج،

بحلول صباح اليوم الثامن وحين باشرتْ أم غايب عملها جاءتْ عربة كبيرة محملة بالطابوق وأفرغتْ حمولتها على الرصيف بجانب بيتها.

إستهجنتْ العجوز هذا الفعل وهي ترى الكثير من قطع الطابوق تسقط في باب بيتها تكاد تغلق عتبته وعتبة الدكان.

أعقبها مجيء عربة أخرى فعلتْ الفعل نفسه حين أفرغتْ حمولتها من الجص على أرض الرصيف لكن في الجانب الآخر للبيت، وتلتهنّ عربة ثالثة كانت تحمل أكياس الأسمنت التي تم تفريغها داخل البيت من قبل صاحب البيت وأقاربه،

بانتْ امارات القلق على العجوز التي كانت تبحث عن أي فرصة سانحة كي تذهب الى جيرانها وتسألهم عما ينوون بناءه وأين؟

فكرتْ في العذر الذي ستتذرع به من أجل ذلك الأمر، وحين شاهدتْ إنصراف الرجال ومغادرتهم البيت خرجتْ من دكانها بعد أن تأكدتْ من إنغلاق بابه الداخلي وتوجهتْ مسرعة صوب جيرانها.

طرقتْ الباب ففتحه أحد الأطفال لها فسألته دون أن تدخل:

– هل أمكّ موجودة؟

– نعم خالة أنّها هنا. هل أناديها لكِ؟

– أجل.

ماما... خالتي أم غايب تناديك صاح الطفل موجهاً كلامه الى الداخل بعد أن إستدار الى الوراء.

– أم غايب؟.... دعها تدخل..قلْ لها أن تتفضل... أنا آتية، ردّ صوت الأم على ولدها وخرجتْ مسرعة من غرفتها الى باحة الدار مرحبة:

– أهلاً خالة تفضلي.... كنتُ سآتيك الآن كي أستأذن منك.... تفضلي.

– أهلاً بك ردتْ أم غايب دون أن تدخل البيت وسألتْ المرأة من جديد تستأذنين عن ماذا؟

– تذكرين خالة إننا رممنا بيتنا العام الماضي... ولكننا أردنا هذا الصيف أن نبني (مشتملاً) فوق السطح من أجل ولدي الكبير الذي نوى الزواج.....ولذا قلتُ آتي إليكِ كي أترخص منك وسأساعدكِ في تنظيف سطحكِ إذا أكملنا البناء الذي سيبدأ العمال به بعد قليل !

– لاخالة، ليوفقكم الله، أنا مازلت قوية وسأنظفه بنفسي حين تنتهون قالت العجوز ذلك وإستدارتْ نحو دكانها راجعة.

– أم غايب صاحتْ المرأة وهي تخرج رأسها من الباب هل جئتِ من أجل شيء معين؟

– ها...توقفتْ العجوز وبادٍ عليها بعض الارتباك وأستدارتْ صوبها قائلة كنتُ أريد أن أسألك عن ثمن كيس الأسمنت الواحد.... فربما أرمم بيتي أيضاً.

– على الخير والبركة خالة....حين يأتي زوجي سأسأله وأرد لك

الجواب مع السلامة.

– مع السلامة أجابتها العجوز وعادتْ تسحب قدميها بخيبة وهي تردد كلمات ساخطة على الصيف والبناء وعلى الحياة كلها.

دخلتْ الدكان وشربتْ بعض الماء ثم دخلتْ الى بيتها وصعدتْ الى السطح وأقفلتْ بابه بالمفتاح ونزلتْ.

في الضحى كانت العلوية قد زارتْ دكان العجوز بعد أن قَدمتْ مع زوجها لبيت جارهم السابق الذي لم تسمع بموته إلا بالأمس ليلاً.

سألتْ العجوزعن سبب تركها الحمام فأخبرتها الأخيرة عن السبب الحقيقي وكيف إنّها رأت أبن صاحبة الحمام يتلصص على المستحمات من غرفة أمه، فلم تستغرب العلوية ما سمعته، غير إنها إكتفتْ بالحوقلة ثم أردفتْ قائلة:

– إن الدلال يؤدي الى الفجور....ويبدو إن هذا الشاب مدلل كما سمعتُ عنه، وسيرسل أمه الى التهلكة في يوم ما.

ثم تركتْ للحفيدين بعض الحلوى كهدية وأخبرتها إنّها لاتستطيع الدخول لرؤيتهما لوجود زوجها معها،كما أخبرتها بأنّها ستذهب الى العاصمة معه لإجراء بعض الفحوصات له.

تمنتْ العجوز لها العودة بالسلامة وودعتها على أمل رؤيتها بعد عودتها من هناك.

عند موعد الغداء أخبرتْ حفيديها بماحصل، فحزنا لعدم مشاهدتهما النجوم بعد الآن وعدم الأستمتاع بنسمات الهواء الباردة، غير إن جدتهما حاولتْ التخفيف من حزنهما بإعطائهما

ماجلبته لهما العلوية من حلوى وقبلتْ كلاً منهما قبلتين كتلبية لوصيتها.

وحين خرجت الجدة لتعاود فتح الدكان عصراً تقاسما تلك الحلوى وبدأا يتناولانها وهما يتحدثان:

– هل تعلم كم أحببتُ النوم في السطح قالت الفتاة

– حتى أنا ردَّ الفتى

– كيف سننام في الغرفة اليوم بهذا الحر؟

– مثلما كنّا نفعل في السابق ! سنعود الى التعود عليه

– كنتُ حين أنام أحلم بأن لديَّ قلادة من النجوم مثل قلادة أمي التي في الصورة وأساور، ولدي حبل منها أيضاً أقفز به مراراً حتى أتعب

– وأنا كنتُ أحلم بأن لدي عربة مصنوعة من النجوم أقودها في طريق لاينتهي.. هل تعلمين بأنني خفتُ في أول يوم صعدنا فيه الى السطح.. خفتُ أن أنام كي لاتسقط النجوم فوقي.

– النجوم لاتسقط!

– من قال ذلك؟

– لو كانت تسقط لسقطتْ قبل أن نصعد الى السطح.

– هل انتِ متأكدة؟

– لا أدري!

– بماذا تلتصق؟

– لاأدري!

– وكم عددها؟

– عددها كثير جداً.....ألم تشاهد ذلك بنفسك.

– هل تعلمين إنّ السماء في الليل تشبه عباءة جدتي؟!

– نعم.... لكنّها بلا نجوم.

كان صوت آذان المغرب هوالمنبه الذي يعلن عن دخول الجدة الى بيتها بعد إغلاقها الدكان، أما الوقت الذي يليه فهو مخصص بعد الصلاة للعشاء والإجابة عن أسئلة لاينهيها إلا حلول النوم.

– جدتي كم عدد النجوم؟ سألتْ الفتاة

– لا أعلم بالضبط ياحبيبتي لكنها كثيرة كما رأيتما أمس !

– وهل تسقط؟ فقد خفتْ أن أنام تحتها أول يوم سأل الفتى

– لاأعتقد يادميتي الجميلة، لكنّي سمعتُ من أمي إذا مات أحد رجال الدين أو سيد كبير الشأن فإن إحدى النجوم في ذلك اليوم تسقط من مكانها كي يتنبه الناس لموته ! ردتْ العجوز.

–جدتي يعني النجوم بعدد السادة ورجال الدين؟ سألتْ الفتاة

–لا طبعاً فهي كثيرة جداً.... ربما أكثر من الناس حتى، أجابتْ الجدة

–جدتي وهل تسقط نجمة إذا ماتت علوية؟ سأل الفتى

شعرتْ الجدة بإنقباض في قلبها حين سألها حفيدها هذا السؤال، وبان ذلك الإنقباض على ملامحها فخشيتْ من أن يلمح ذلك حفيداها ويسألانها عن سببه فإستدارتْ الى الوراء متشاغلة بالبحث عن شيء ما وهي تقول

– والله لا أدري، ثم تمتمتْ في سرّها (أللهم أحفظها يارب) وهي تفكر في صديقتها العلوية.

بصعوبة كبيرة دخلتْ العجوز والعلوية مقام الولي وشقتْا لهما طريقاً ضيقاً بين جموع الجالسين في إنتظار قدومه، والذين كانوا يخشون سقوط الطائرات التي يراها من يرفع رأسه الى الأعلى إنها تكاد ترتطم به.

وبعد أن سلمتْ العجوز على كلٍّ من كانتْ تعرفه هناك، شاهدتْ مجموعة من النساء كنَّ يحملنَّ تابوتاً كبيراً يحاولنَّ إدخاله من الشباك في ضريح أصغر منه وسط لغط الحضور واستهجانهم.

تعجبتْ المرأتان مما يحدث وإقتربتا منهنَّ لكن النساء وبعد محاولات عديدة باءتْ كلّها بالفشل أنزلنَّ التابوت الى الأرض أمام الشباك وغادرنَّ المكان خارجات، بعد برهة من الزمن رُفع غطاؤه وخرج منه رجل ذو جسد عريض طويل القامة جداً يكاد رأسه يصل الغيم، حين أبصرته الطائرات لاذت بالفرار لتبقى السماء بعدها أكثر من صافية.

ومع إزدياد عبارات التهليل وإرتفاع أصوات المرحبين به صارالرجل يتفقد جموع الجالسين ويحدث كلّ جماعة بما جاءتْ من أجله.

وحين أبصر المرأتين تقفان أمام التابوت الذي خرج منه، وعلامات الإستغراب بادية عليهما إجتاز الجموع بخطوة واحدة وإقترب منهما ليمسح بكفّه الكبيرة على وجه أم غايب وهو يقول (ياللجمال الرباني!)، بينما إقترب من العلوية ليرسم بسبابته على وجهها خطين

مائلين متقاطعين دون أن ينبس ببنة شفة.

إنتفضتْ العجوز من نومها وهي تتمتم.

– لاحـول ولاقـوة إلا بـالله..لاحـول ولاقـوة إلا بـالله... اللـهم إجـعله خيراً، وأخذتْ تمسح العرق عن وجهها.

طلباً للسرعة لم يشأ الزوجان أن يستقلا حافلة كبيرة في ذهابهما الى العاصمة،

بل إستـأجـرا سيارة تكسي الى هناك صـعدتْ العلوية في المقـعد الخلفي للسيارة وصعد زوجها في المقعد الأمامي الى جانب السائق.

إبتـدأ الحـديث بين الرجلين حين قـدم السـائق للرجل سـيـجـارة فـأعـتذرالآخرمنه بلطف كونه قـد إمـتنع عن التـدخين منذ أن ألم به مرض لم يفلح أطباء مدينته بتشخيصه،

وها هو يلجأ الى أطباء العاصمة من أجل ذلك.

– مع الاسف.... أبي توفي قبل أشـهر بمرض لم يكتشـفه الأطبـاء لعنهم الله، سلبوه كل نقوده ولما مات عرفوا انه مرض يصيب الذكور بنسـة ١٪ آه، قـال السـائق وهو يتـحـسـر. مع الأسـف، الموت مـخـيف يسرق منّا أعزاءنا دون أن نشبع من وجودهم معنا..

أمس ذهبنـا أنا والعلوية نعـزي بوفـاة أحد جيـراننا... كـان لما يزل قوياً لكن المرض أوقعه مع الأسف، ردّ الرجل.

– لاحـول ولاقوة الاباللـه.. المرض ياعمي مـخـيف ولقـد جربتـه ولم أشفَ بعد منه.

– هل أنت مريض بمرض مزمن؟ سأل الرجل السائق

– أنا معاق فقد أصابني شلل في جهتي اليمنى من أثر صدمة تعرضت لها قبل أيام... ألم تلاحظ إنّي أسوق بيدي اليسرى؟

– لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ! تمتمتْ العلوية بصوتٍ شبه مسموع، وهي تسمع ما قاله السائق، بينما إكتفى الرجل بالتراجع الى الوراء قليلاً حين تأكد من حقيقة السائق الذي إستأجروه، يقود العربة بسرعة كبيرة لاتتماشى مع وضع جسده المعاق حتى وهو يصعد الخط السريع ظل يزيد من السرعة ولم ينتبه أبداً الى التوقف المفاجيء لإحدى المركبات الكبيرة التي كان يسير بعدها.

وحين جاءت الشرطة بعد ساعات لمعاينة الحادث لم تستدل على أثر لشخص حي، كان اليوم حافلاً بالصخب للتوأمين ولم يكن بإستطاعتهما اللحاق بالأصوات الكثيرة ومماثلتها رسماً.

فقد تعالتْ أصوات شتى منذ أن باشرعمال البناء عملهم وأخذ الأطفال الصغار يراقبون حركاتهم المختلفة بفضول.

حتى أن بعضهم لم يذهب لتناول طعام الغداء في بيته، بل إكتفى بقطعة خبز جلبها من هناك وأخذ يمضغها ببطء أمام العمال الذين وجدتْ أم غايب فيهم زبائن جدد لدكانها، فسرعان ما التصق أسم أم غايب بألسنتهم. ينادون به عليها من أجل السجائر والمشروبات الباردة التي كان الواحد منهم سرعان مايسرق له لحظات من أجلها، طمعاً في حصوله على شيء من الإنتعاش وتقليلاً من حرارة هذا اليوم القائظ جداً.

وحين شعرتْ العجوز بإشتداد الحرارة في دكانها الى حد لا

يطاق، فيما كانت المروحة الأرضية الوحيدة الموجودة فيه، تقذف طيات من الحمم الحارة لا الهواء، دخلتْ الى البيت ذاهبة الى الحمام لتغسل وجهها،فشاهدتْ حفيديها في الغرفة ملتصقين بالجدار يتسمعان الى مايحدث في الخارج والعرق الغزير يتصبب من جسديهما بكثرة، بقيتْ للحظات ترقب ذلك المشهد عن بعد وتفكر فيما يمكن أن تفعله لهما، لكن صوت أحد الأطفال نادى عليها وجعلها تقطع التفكير وتعود الى دكانها مسرعة فوجدتْ بأنتظارها طفلا بمرافقة أمه وهو يطالبها أن تشتري له بالوناً.

ناولتها العجوز بالوناً مفرغاً من الهواء غير إن المرأة واجهتها بسؤال غير متوقع

– صحيح خالة أم غايب كنتِ تعملين في حمام السوق؟

– من أخبركِ؟ بذلك ردتْ أم غايب.

– بعض النسوة قال ذلك حين شاهدك حاضرة في مراسيم الفاتحة قبل أيام، قالت المرأة ذلك وهي تحاول فكَّ طرف عباءتها الممسك به الولد طلبا للشراء.

– نعم. صحيح ردتْ أم غايب وقد أصابها ضجر من تطفل الناس عليها وإنشغالهم بما لايعنيهم.

– ولكن لماذا تركتِ عملك؟ سألتْ المرأة من جديد بعد أن أسكتتْ حركات طفلها الملحاح بوضع البالون بحدة في يده.

– كان عملاً صعباً.... لم أقدر على البقاء فيه طويلاً أجابتْ العجوز وهي تنزل عينيها الى الأرض خشية أن تلمح المرأة فيهما كذب قولها.

– هنا أفضل لك خالة، أجابت المرأة وأردفتْ قائلة تعرفين أم غايب

حين كان دكانك مغلقاً كنّا نذهب الى السوق لنشتري حاجياتنا.... وتعرفين كم هذا صعب عليّ خصوصاً وأنا في الأشهر الأولى من الحمل !

– صحيح... ربي يكملها لك بخير... وترزقين بطفل تام الخلقة قالت العجوز للمرأة التي ردتْ عليها بألّلهم آمين يارب العالمين، وودعتها عائدة الى بيتها برفقة طفل يطالبها وبصوتٍ عالٍ أن تنفخ له البالون.

ربما سؤال المرأة المتطفلة ذاك هو الذي جعل الأحداث تمرّ بذهن العجوز، وكأنها شريط سينمائي غير إن ذهنها توقف عند اللحظة التي شاهدتْ فيها شاباً يتلصص على المستحمات من الشباك.

في هذه اللحظة وثبتْ فكرة الى ذهنها لم تخطر ببالها قبل الآن،

أغلقتْ الدكان بسرعة ودخلتْ أشبه بالراكضة الى الغرفة وتوجهتْ نحو أدوات رسم التوأمين، إلتقطتْ منها قطعة من بقايا الباستيل الأسود وطلبتْ من الحفيدين الجلوس بإعتدال، والنظر صوب الحائط،

رسمتْ بالتأشير بسبابتها خطاً وهمياً يمتد من عيونهما الى الحائط الذي يفصلهما عن الشارع، ثم قامتْ بوضع أربع نقاط عليه، تراجع التوأمان الى الخلف وهما يشاهدان جدتهما تأتي بمطرقة ومسمارغليظ جداً وتثقب النقاط التي رسمتها بضربات متباعدة حتى لاتجعل من في الشارع يفطن الى ماتفعله،

بعد طرقات عديدة توسعتْ تلك الثقوب لتصير بحجم عين مفتوحة بشدة،

إقتربتْ العجوز منها أقتراباً شابه الإلتصاق، ونفختْ في كلّ فتحة

منّها لتزيل التراب العالق فيها،ثم نظرتْ من خلال كلّ فتحتين متجاورتين الى الشارع لتتأكد من وضوح الرؤية خلالهما، ولما تأكد لها ذلك الأمر إستدارتْ نحو حفيديها وأشارتْ لهما إشارة فهِما منها إنّها تريدهما أن ينظرا الى الشارع، وخرجتْ لتُرجع المسمار الغليظ والمطرقة الى مكانهما.

سارع التوأمان من مكانهما زحفاً الى ثقوب الجدار، ونظرا بسعادة كبيرة جداً الى الشارع الذي بانت لهما أجزاء منه ولأول مرة في حياتهما،

وقع نظرهما على طفل يحمل بيديه بالوناً يضمه الى صدره وآخر يحاول أخذه منه عنوة،

ولما لم يفلح الأخير في ذلك رفع كسرة من إحد الطابوقات وضرب بها رأس صاحب البالون فشغب الدم من رأسه وأخذ يصرخ صائحاً وهو يركض حاملاً بالونه:

– دم... دم.... دم....

إنتهى